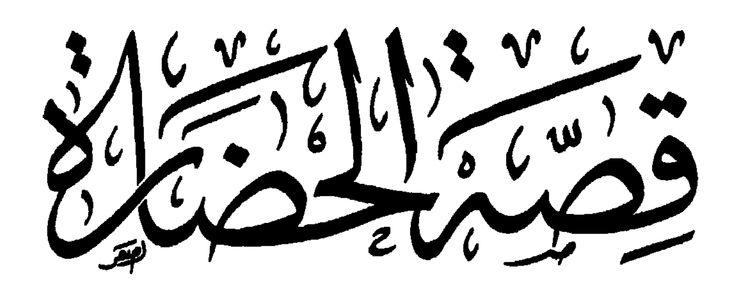


ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالصراع بين الدين والفلسفة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد التاسع







بيروت — تونس

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ = ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠ إ ج
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

إلى حفيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقىَ اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفَيْن اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحورى ـ ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا المنتشرة • فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار ـ فى الأخلاق والأدب ، والسياسة ـ سيسفر عنها هذا التغيير ، الأساسي رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تاثيرها وتشويقها • ولعل هذا التكاثر ، بالاضافة الى تعدد الموضوعات ـ التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ ـ ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها • وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ • وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الأخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ ـ ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترة ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة ـ وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وايطاليا ، والبرتغال ، وأسبانيا ـ التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) • وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الاخلاق المسيحية . وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة » وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو والثورة » التى تلقى نظرة محيطة على المجلدات العشرة كلها ، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف « التاريخ المتكامل » . ذلك أن الاحداث والاشخاص تسير جنبا الى جنب خلال الزمن دون اعتبار لأيها كانت الاسباب وأيها النتائج ، والتاريخ يتكلم فى الاحداث ، ولكن خلال الافراد . وليس هذا المجلد سيرة لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجوالة الثائرة نسبجا يربط بين الامم والاجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الاعلام دلالة وأكثرهم ايضاحا فى الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لاعماله ، وأبقى تأثيرا فيهم اليوم ؟ يقول جيورج برانديس « ان فولتير خلاصة قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى للقرن الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

الفصل الأول

فرنسا : الوصاية

١٧١٥ ـ ٢٣

١ ـ فولتير الشاب : ١٦٩٤ ـ ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من الباستيل فى ١٧١٨ يدعى فرانسوا مارى آرويه . وقد ولد بباريس فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل الذى يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ، وعرف المسرحى بيير كورنيى ، ووصفه بأنه « أثقل من لقى من الناس ظلا (١) » . وأما أمه ، مارى مارجريت دومار ، فكان يجرى فى عروقها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف فى « البرلمان » وأخت المراقب العام للحرس الملكى ، ومن طريقهما استطاعت الوصول الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكاؤها المرح من بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه فى الأربعين وهو لم يجاوز السابعة . وكان أكبر أبنائها الخمسة ارمان ، الذى كان غيورا على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء فرانسوا مارى ، فكان معتلا فى عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب كان يخلع على أى كنسي علمانى ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن. وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا فى المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة السافرة فى

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشـــتهى متسترا وان حافظ على مظهر لقبه . مثال ذلك الأبيه دشاتو نوف ، آخر عشــاق نينون دلانكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه ونئية نينون وارتيابية مونتينى . وفى رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبى ملحمة هازلة تدعى « الملحمـــة الموسوية » كانت تتداول فى مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الأيمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعـــة يتذرع بها الحـــكام لاخضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الأبيـــه » فى زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشـــهيرة يومهـــا (١٧٠٤) فى الرابعـــة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر فى تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقـد طاب لها أن تذكرنى فى وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لأشترى بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة فى موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى ـ لجران اليسوعية على شاطىء باريس الأيسر ، التى اشتهرت بأنها أفضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميـــذها الألفين من أبناء الاشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الارستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالألفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا فى الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا ســيما المسرحيـــة ، ومثل فى مسرحيات عرضـــت هنـــاك ، وكتب هو نفســه تمثيليـــة وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقـــدما فى دراســـته ، وظفـــر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفزعهـــم . فلقـــد أعرب عن عـــدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبأ أحد معلميه فى حزن بأن هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية ـ أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه ـ طوال هرطقاته كلها ـ باحترام وعرفان بالجميل

دافئين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهـودا مضنية لم ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد اشربونى ميلا الى الادب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من شىء سيمحو من قلبى ذكرى الاب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على كل من أخذوا عنه العلم . فان احدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الاب ... وقد أسـعدنى الحظ بتلقى العلم على أكثر من أب يسوعى جملته أخلاق الاب بوريه .. فما الذى رأيته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب الحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونهـا لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الادب مهنته ، ولكن أباه أصر على أن يدرس القانون ، محذرا اياه من احتراف الادب الذى هو كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سـنين « يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنـة المحاماة الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الاشياء عديمة الجـدوى التى ارادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شـعارى هو : التركيز على صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الابيقوريين كانوا يجتمعون فى التامبل – وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل (الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء اديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ، ومعه الاباء سيرفيان ، ودبوسي ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير كونتى ، وغيرهم من الاعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحيـاة مرحة .. .. وكان الابيه دشوليو يجهر بان الخمر والنساء أطيب النعم التى جادت بها على الانسان طبيعة حكيمـة خيرة (٧) . وقـد لاءم فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء السمار المعربدين حتى العاشرة مساء ، وكانت تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسية فى غرام أوليمب دنواييه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبى ، لأنه لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير آرويه الأب بأن فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور اليه . واذ كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت عليه بأن من الخير له أن يصالح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقيم معه ، فوافق . اما بامبيت فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية . لقد كان انسانا مرهف الشعور كأى شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تآلف بين عقلين . لقد فاضت طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة والعشرين يقول « ان الصداقة أثمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى أننى لم أخلق قط للغرام . فاننى أجد فى الحب شيئا سخيفا نوعا ما .. وقد قررت أن أطلقه الى الابد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوربا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة مُلك ونهاية عصر : مُلك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ، وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب وافقاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جـــده ، وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقى على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهـم الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البــالغ آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتى بلغ ثمنهـــا ٩٠٠ر٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحثه على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشــعراء (ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفية تمهيدا للملك وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امـرأة لا عيب فى جســمها ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهـــة حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس ١٧١٥) تركت لدوق مين الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه، وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيا فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيســا للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الأخ الخنثوى للملك الشيخ من زوجة ثانية ـ هى شاررلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نيط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان ـ سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بانه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان ـ ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بأداء الاعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان ـ لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر راسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان ـ لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو ـ الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه احس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . اما سان ـ سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء . لقد كان ـ فى كلمتين مالوفتين ـ وغدا اصيلا . اصطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل ـ آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والملق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كانه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الاوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود ... كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله افسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها ... شرير ... خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود ان يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان ـ سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا الا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الابيه كان دارسا كفئا ، ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موفقا ، وان فيليب لخبرته بالرجل ظل وفيا له الى النهاية .

اما التلميذ ، الذى ربما كان نسبه من ناحية الاب قد افسده ، فقد تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . ابهج معلمه بذاكرته القوية ، وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهمه وتذوقه للأدب والفن . واتاه دبوا بفونتنيل ليعلمه اصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه أصول الكيمياء ، وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك انجلترة ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صورا لا باس بها ، ويعزف على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقة خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة التنوع ، وملاهيه تستاثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الأيمان الدينى ، وحتى امام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) » وفى هذا ، كما فى اباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرنا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهواياته الشخصية ؛ على انه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب عطوف ، رءوف (كما قال سان ـ سيمون (١٣)) اكثر وفاء لاصدقائه منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته أمه اجابها « من السادسة صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا انى الهو بعد ذلك لما اطقته ، ولمت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الاول عذر فى اسرافه فى الجنس. ذلك انه شغف حبا بالآنسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قــوية . وأطـــاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيرى حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق فى ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هى دوقة بيرى المستقبلة ، التى أصبحت أغلى حب له وأمر مأساة فى حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، الا أن يستمتع بحياته فى السلم ويخاطر بها فى الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضـــد الحلف الأعظم (١٦٩٢ ـ ٩٧) ، واصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة فى حـــرب الوراثة الأســـبانية (١٧٠٢ ـ ١٣) . فلما نجا من الموت كافأ نفسه بوليمة من البغايا . وكان فى آثامه كلها ، وفى غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف فى السلوك وتهذيب وأدب فى الحـــديث يذكـــر الناس بشـــباب « الملك الشمس » الحالم .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش الا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، اما بالموت واما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت المالك ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسنيون الذين قاســوا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك أصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين ابهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنســـا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذى جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك انجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » ـ

أى الأسر النبيلة التي أنزلت عن سلطانها القديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عالة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثأر لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة. وحث سان - سيمون فيليب على التخلى عن تبطله وفجوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك وشأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بآمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالية الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، واعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيمة ، وهانذا التمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبايع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وانه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولا عن شخص الملك الصبى ، وأنه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفأ مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٣ ـ ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ ـ ٢٠

كانت مهمته الأولى اعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة. لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أضيف اليه دين قصير الأجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على الدولة » ـ وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى ايرادات الحكومة عام ١٧١٥ لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليونا . وكان أكثر الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدما (٤٧) .

واشار سان ـ سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين باجراءات اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، واعفى الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، واعفى آباء الأطفال الثمانية اعفاء دائما . وخفضت ضرائب « التاى » ، والجابيل ، والرعوس ، وغيرها من الضرائب . ونُدد بالفساد الذى استشرى فى جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفت مئات من شاغلى الوظائف الحكومية الزائدين عن الحاجة ـ ومنهم ٢٫٤٠٠ فى باريس وحدها . وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول امامها كل الماليين ، والتجار ، واصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه فى انهم غشوا الحكومة . وهنا اقام نواى ، الذى الف الاجراءات العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرأفة كل من يكشف عن زملائه من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التى تسترد بفضل مساعدتهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ، وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد مدى الحياة عقابا لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات امام جمهور مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يئسوا من تبرئة انفسهم . على أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك ان أكثر المذنبين اشتروا الاعفاء من الفحص أو الادانة برشوة موظفى الغرفة ، أو أصدقاء الوصي ، أو خليلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حدا كان افراد الحاشية

يسعون فيه الى الرشوة بدلا من ان يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك ان احد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرهـــا ١٢٠٠٫٠٠٠ فرنك ، فوعده احد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبـلغ ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تاخرت كثيرا ، لانى ابرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى الغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة ندر ان تتحلى بها الحكومات ، أن «الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال الخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحـــو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقـد ولد لمصرفى من أدنيره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لنـــدن ، وشهد افتتاح بنك انجلترة فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالاعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى ســـوق النقد الأجنبى ، وأعانته قدرته على حســـاب ارتباطـــات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة .وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الأرصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتهما . وساءل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفـــكر فى وضع « نظامه » ـ وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد، بضمان الحكومة ، لمثلى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الأعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو أمكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لأضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما اصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساءل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحين من المصارف القومية ؟ ولم ترد فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بان يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعا أهليا . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، واقرض القروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة والف فرنك - سرعان ما أصبحت وسيطا مفضلا فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، أول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبول أوراق المصرف سدادا للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره اشد مغامرة . ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسسبى باكمله ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠ر٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عاليا ، ولكن يجوز دفع ثلاثة ارباعه سندات حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

وبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التى أتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسـهما فى مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو ـ فى تفاؤل متزايد ـ تعليمـــاته لمصرفه بان يشترى الاحتكار الملكى للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التى تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التى ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدا لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية فى التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية فى الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تاسيس مصرف لو باســم « المصرف الملكى » ، واعترف باوراقه أوراقا نقدية قانونيـــة ، واعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . وأصدر لو اصدارا جديدا من الاســهم فى شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب. وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة فى تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها باسعار مطردة الزيادة فى موجة مضاربة ، حتى طلبت بســـعر ٥٫٠٠٠ جنيه ، اى بتسعة أو عشرة امثال قيمتها الاسمية . وتصـــادف أن مرت بباريس فى ١٧١٨ الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، فابتســـمت لرؤية فرنسا تترك التصرف فى حياتها الاقتصادية لرجل بريطانى . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكى الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبـــايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى باعطائه حصة فى شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٫٠٠٠ جنيه فى تعهدات الحكومة ، وخيل اليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا فى مشروعاته المنـــوعة . ثم عرض قـــدرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصى قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماستهم للشركة ، وزايد المشترون باسعار اعلى واعلى على اسهمها ، وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل شارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذى اختار « النظام » فيه مكانه ، سدى عامين المركز المالى الرئيسى لباريس (اشبه بوول ســـتريت فى

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميـــع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلار » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة باصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل احيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذ كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لاول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتمسين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رايته يعينى يخترق ابهاء الباليه ـ رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف ـ وماريشالات فرنسا ، واساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت احدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار افكاره الظـاهر افســـده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصي اطغاه ، والواقع انه ربع للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور اسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يســتغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان ـ سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبـــا

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى مائدة طعامه ، ولا فى اثاثه ، ما يصدم الناس. وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية .. .. أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لانه اجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ ـ أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) ـ وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ ـ ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وافريقيا ، وامريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فاصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى ادركته تحت كولبير . واقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر اركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحى . فلقد كان شطر كبير من وادى المسسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة اقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروست) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون اسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . واوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . اما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الردىء ،والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسسبى » (كما سماها الناس) اقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب او الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم ان لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد ان نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين ان اسهم الشركة قد بلغت قمتها ، اما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات او الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لانهم تاخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ اصبح التهافت والتنافس على البيع اكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون اسهما بعشرين مليون جنيه ، وامير كونديه باربعة عشر مليونا ، وتطلب الامر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وأفرغ مضارب بروسي ما يملكه منها ، ثم مضي بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن اسهمهم ليشتروا أرضا أو بيوتا او حليا او اشياء اخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . اما الماليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن اوراقهم وارسال الذهب خارج فرنسا . وحاول لو ان يقف تدفق الذهب من الخزانة ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعادن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لمندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان ـ سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم ـ بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة ـ ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٫٠٠٠ جنيه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارتفعت مائة فى المائة ، والأجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديسترى كميات ضخمة من البن والكاكاو . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا ـ ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . ففى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهبا أو فضة . وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضي ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولا عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمت مركبته تهشيما فى فناء الباليه ـ رويال ـ وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبان الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت أسهم شركة المسسبى الى ٢٫٠٠٠ جنيه بعد أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٫٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبأ - سرى من فم الى فم - بان الوصي سحب من المصرف الملكى ابان ازدهاره أورقا بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب احد صيارفة المصرف الى بروسيا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت أسهم شركة المسسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ، وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ، فلم يأخذ الآن معه سوى الفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى بروكسل تلقى من بطرس الاكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادىء التى اقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسي مؤقتا خربا فى ظاهر الامر ، فحملة الاسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط هذه الفوضي . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، اما الجمهور الذى استنفد سورة غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئا بقى بعد هذا الانهيار • فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة • وأفاقت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان • وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضي • وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة ــ وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى • وتضاعف عدد الماليين وازدادوا قوة على قوة • وكسب النبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لانهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاحا عنها فى أى طبقة • وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل • وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسأل عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجو الاخلاقى للمجتمع الفرنسي • فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسي بقدر أتاح للوصي على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح •

٤ ــ الوصي

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » • أما فليب ، الذى شكله مونتينى ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه • ورمز لروح نظامه بتركه فرساى وسكنى الباليه ــ رويال ، فى قلب باريس ومعمعانها •

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعــلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة فى المزيد من التيسير والخلوة رتب الا يسكن الملك الصبى فرساى بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبــدلا من أن يدس له فليب السم كما ارجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وابدى نحـــوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التى اغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد ان دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عــن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئـك الذين عرف عنهـــم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجــال قد سجنوا بمقتضي اوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، واكثرهم جانسنيون لم تكن تهمتهم سوى الانشـــقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم انفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك ان رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط او ينبأ بسبب سجنه ، فلما افرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انســانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس ان يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، واجيب الى ملتمسه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بان يهدئا من خلافاتهما . واغضي عن البروتستنت المتسترين ، وعين عــددا منهم فى وظائف ادارية . واراد ان يجدد مرسوم نانت الســـمح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التســامح ، كذلك ثناه عن ذلك وزيره دوبوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى انكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيريا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، اما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولهـــا فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للايمان المسيحى .

وكان فيليب ـ من الناحية السياسية ـ حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى أن يرى فيها ارهاصا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلأت مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته أبيقوريا ـ فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان ـ سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته ... وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم ـ وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطيق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان ـ الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به ـ أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور ـ وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضي القضاة البالغ عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيبين فى عباءاتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتآمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، وكانت أسمى اللحظات فى « مذكراته » .

على أن دوقة مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الظرفاء الذين راحوا يخزون الوصي بأهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، اللهم الا « الفليبيات » وأهاجى « الأشياء التى شاهدتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الاسبانى ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسبانى ، والكردينال ملشيور دبولنياك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسبانى ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وافرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق انه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلقه الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من الطرق اكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساى ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قصرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فسرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضي غير المزروعة . واسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للمأثورات والآداب البحتة ، والاكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وانشا فى اللوفر اكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيأ لهم غرفا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنهم المختلفة • ولم تؤت تدابيره واصلاحاته ثمـارها كاملة من جــراء كابوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى •

ومن أفجع المآسي فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوثه وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله • فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجــال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها • أقول دكلوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادىء (٤٣) » • واذ كان قد اكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافتقد الحب أو السلوى فى زوجته ، فانه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيــه حاكم خارج حريم السلاطين • واختار اصدقاءه من بين المعربدين الذين كان يصفــهم بكلمــة roués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغــالى ويزودونهــا بالمثيرات الجنسية (٤٤) • وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليــه — رويال ، أو فى فللته فى سان — كلو ، ومعظمهم من شـباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب — فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفــان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثارة الانثى لذكاء الرجل • يقول سان — سيمون ، ربما فى شيء من التلوين المنافق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخــلاق كل انســان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضي والحاضر ، وكل قــديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكامنه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين • ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تاثير • وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون باقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بافحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثملوا بالخمر ، مضوا الى فراشهم، ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصحت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه احداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعدات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديدات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسه بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الأوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات او المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على انه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو ان يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ انني لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه ان زال .

هذا العربيد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فانه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون ان يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان امسكته متلبسا بين احضان امرأة ، وافقت على ان ترضي عن خياناته شريطة أن يغضي عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧)»

هذه الحفيدة ـ حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » ـ وسليلة أسرة بافارية ورثت الجنون فى دمها ، وجدت الآن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها واخطائها من حدة طبع عات ارعب كل من كان لهم صلة بحياتها · وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحتفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) · فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق · وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين ·

ويبدو انها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وانه لم يحب انسانا قط محبته لها · ولقد شاركته ذكاءه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنها فى شبابها يضارع حسن اجمل خليلاته · واتهمتهما شائعات باريس ـ التى لا قلب لها ولا حرمة ـ بسفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) · واغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقتها « شلة » مدام مين (٥٠)· وقد رفضها سان ـ سيمون ، وهو اقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيعة · أما فليب ذاته فلم يعبأ بنفيها · وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢)، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستأثرة (٥٣) ·

ولم يقو على فصلها عن ابيها سوى رجل واحد ـ هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء · ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض اتباعها ، وولدت ابنة للكبتن · ثم ما لبثت أن تزوجته سرا · وتوسلت الى ابيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا · ومرضت ، واهملت نفسها ، فأصابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاها اياه طبيبها (٢١ يوليو ١٧١٩) · وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها · ولم يرض اى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان ـ دنى بايداع جثمانهـا فى المدافن الملكية فى كنيسة ديرهم . أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه فى فراغ السلطة .

٥ ـ المجتمع فى عهد الوصـاية

كان ازدياد الثروة فى فرنسا فى الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حيـاة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسنية ـ كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا فى الأخلاق رمز له لويس الرابع عشر فى شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تاثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض أحرار الفـكر الرقـابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة فى موجـة من الزندقة والاستغراق فى اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسـلط البيورتان (١٦٤٢ ـ ٦٠) . واصبح التحلل من الاخلاق شارة التحـرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكيت (٥٤) » .

كانت المسيحية آخذة فى الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمن طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . ففى ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين فى باريس (٥٥) ، وقال ماسيون فى ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضفى على اصحابه مظهر التميز والفخار، انه فضيلة توصل الى العظماء ... وتجلب للمغمورين شرف الألفـة بامير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد ان فى باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسيحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفى التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد ، الذى كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شأنهما شأن التامبل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

واذا كان المروق عن الدين قد شارك فى اطلاق الإستهتار الخلقى فى الطبقة العليا ، فان الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على احـــداث الفوضي الخلقية بين دهماء باريس . وقد حسب العالم لاكروا ان « الاشخاص الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين أغنيائها . وأفرخت الجريمة فى شتى أشكالها ، من النشالين فى باريس الى قطاع الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تســـتطع ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩). وفى ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل فى القبض على كارتوتن، قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزى) وحاصرت خمسمائة من رجال عصابته التى جعلت السفر خطرا حتى على الملوك . ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين والطبقات الوسطى .

أما فى طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المـدن الطليقين ، ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخليلات ، فقد بدا أن المبادىء الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية الا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الآحاد . فاذا وفدت الزوجات على باريس أو فرساى تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق، الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجهـــا جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك نافست النساء الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفـــاظ عـلى الأسرة ، وأملاكها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عـــرف العصر والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فنادرا ما كان

الزواج يقود الى الحب او الحب الى الزواج ، وحتى فى الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب . على ان العهد لم يخـل من زوجين وفيين يتالقان كانهما استثناء جرىء للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسـيو ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل . وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات الى جدات هادئات مثاليات واتكفا بعضهن ، بعد ان بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، الى اديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجرأ نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التى أطلقت فجأة من الدير وهى فى الثانية والثلاثين الى سلسلة متلاحقـة من العلاقات الغرامية . وكان لها اعذارها : فابوها زير نســاء موفق ورئيس برلمان جرينوبل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذى يتلهف على أن يباع . وكانت أختها الاكبر منها ، مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيرا فى فوضي علاقاتها الغرامية ، وقد قالت فى اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقـولون لى ذلك فاصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقى بعد هذا (٦١) » . ورسم أخـو كلودين الاكبر منها قسيسا ، وشق طريقه الى قبعة الكردينالية والى منصب رئيس أساقفة ليون متوسلا الى هدفه بالعديد من النســاء ، أما الأب فادخل كلودين ديرا فى منفلورى ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاما فى حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفى ١٧١٣ ، حين بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت فى حجرة الشفالييه ديتوش ، وهو ضابط فى المدفعية ، أصحبت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسـوف دالمبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هـذا الوليد ، فتركته على سلم كنيسة سان - جـاك - لرون بباريس . وانتقلت الى ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنســون ، وبعد أن جلست الى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت أن تحوّل قبلاتها الى وظيفة كهنوتية ذات ايراد لأخيها المحبوب ، واجاب فليب أنه لا يحب الغوانى اللاتى يتحـدثن فى شـئون العمـل فى

الفرانس (٦٣) » ويأمر بأن توصد أبوابه فى وجهها . ثم نهضت من كبوتها تلك وغزت قلب ديوا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفى وسط هذا التقلب الأخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ، والذكاء ، والجمال ، فى الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهذيبا فى العاصمة يلتئم شمله فى مبنى الأوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان يحضر الساسة والماليون والشعراء ـ فونتنيل فى ستيناته الصامتة ، وفولتير فى عشريناته المندفعة . وكانت جماعة أكثر جذلا تجتمع فى الاوتيل دبوبون ، الذى خلده لساج فى لحظة غضب ، ذلك أنه دعى هناك ليقرأ مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فوبخته الدوقة فى خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فأجاب « ساجعلكم تكسبون ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون مدام دمين فى سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت فى ١٧٥٥) تصف المهازل ، والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى أدارته آن تيريز دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الاوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة الاهلية) . وقد واصلت هذه المراة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية الصاخب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم فوق ما يفقهه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقبا نبيلا ، ويحرك مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ، وفى كل أربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات والمؤلفون يقرءون ما يزمعون اصداره من كتب ، والشهرة الادبية

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيفة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها في عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللائى يجعلن تاريخ فرنسا اكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ ـ فاتو والفنون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق. فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ ـ ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مباهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنائس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ ـ ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن اصغر حجما ، وحليتها اكثر رقة وصقلا . وبدا الباروك يتحول الى الروكوك* ، اى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه اناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابث الذى لا يمكن التنبؤ به . واصبح الولع بالصقل البديع ، والالوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، واختفيت الاركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساى الاولمبية الى صور اصغر ، صور الحركة الرشيقة والاغراء العاطفى . وتجنب الاثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة اكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحبيبين اللذين يكرهان عاطف البعد . وارسي شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز اثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

---

* ربما كانت هذه الكلمة rococo اصلها rocaille وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات او تجميلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى الروكوك • فحين نقل الحكومة من فرساى الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الاكثر خفـــة ، ووجـــه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن • وكان راعيا للفن بحكم منصبه وبتفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، ســخى فى البـــذل للفنانين • ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصـــوير التقليدية ــ مواضيع الدين أو الأساطير او التاريخ ، بل الروائع الصــغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلى المرصعة بالجواهر ، والآنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الاشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسهن روبنز او تتزيانو رداء الطبيعة أو يرفلن فى أرواب فيرونيزى الفاخرة • وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه ــ رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خليلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منهــا لضارعت مجموعته افضل نظائرها • ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم • تحدث الى كبير مصوريه ، شارل انطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخـــور بان أتلقى نصـــيحتك وأنتفـــع بدروسك (٦٥) » • ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر •

وأفصحت روح العصر عن نفسها باجلى بيان فى التصوير • فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حـــررهم الوصي ورعاتهم الجدد • واستجابوا عن طريب خاطـر للطلب عـلى الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهــــد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لأثاث الوصـــاية وسجفها ، والحفلات المرحة فى غابة بولونيا ، والالعاب والتنكريات فى قصر سو ، والاخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات • وحلّت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين القاتمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصـــين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقـــاله بان

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرهويات الحالمة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محـــل صور مآثر الملوك وجلائل أعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشـــتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساى بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه ـ رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجلبير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة أخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خيلائه وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحـــة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان ـ سولبيس بروح الخشوع والورع ، ثم اشاع الدفء فى صالون هرقول بفرساى باجساد شـــهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظـــر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحيـــة ، اســـلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته أول الأمر التأثيرات الفلمنكية ـ صور روبنز ، وأوستاد ، وتنيبه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمسك رمقه يفضي لاصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا ـ وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطـلاته لرسم الأشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى احد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدى ـ ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الاكبر حين قصرتهم مـدام دمانتنون على البانتوميم (التمثيل الايمائى) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميـذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بهـا مارى مديتشي ، ووجـد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسي . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمتها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينـل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية الحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهـود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الابحـــار الى جـــزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة بيرى بزخرفة قصرها الريفى « لامويت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين أخر . وقدّم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو المأكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورســم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالترف، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجـــر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورا فى حانوت ، وفوق النزعـة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهـن الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذ بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليـو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل المروض العصبى الحيى" ، السريع الاعياء ، النـــادر الابتسام ، القليل المرح ـ يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها احلامه وأمانيه ـ مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذ كان اضعف من أن يجرى وراء شـــهوات الحس ، فانه حتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهـن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فاضـــفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » اغلى واشف ما اســتطاع تخيـــله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشـــهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته امام خلفيـــات حالمة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمايلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تمثال وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسـياب أثوابهن المتمـــوج . فالقى على ثيابهن كل سحر الوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، واعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجـال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الأكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيـدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة ـ واستجابت باريس باختيـارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباهج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلخ شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصـور الاعيـاد المرحة » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حالمة فى ريف هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا انهن خبرن شيئا من الألم ، او ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو ـ الترجمة المرهفة للحظـات الكمال التى لا بد ان تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لأن الطباشير أو القلم بلغ هذا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تمييز فى رسم العيون والوقفة والمروحة المعابثة لم تكشف عنهـا قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . واغرمت نساء باريس غراما شـديدا بانفسهن كما رأينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها باسلوب فاتو (الا فاتو) ، ومشت واتكأت باسـلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خيـاله والوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « أرابسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون امثال لانكريه وباتير تخصص فاتو ، وصوروا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسـيقى فى المنتزهات وحفـلات الرقص على الخضرة ،

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة السنة التالية كان ذكرى لفاتو . وقد استمر تاثيره حتى بوشــــيه ، ثم فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التاثريون فى أســـلوبه ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ ــ المؤلفــون

زكا الادب فى ظل اخلاقيات عصر الوصاية الهينة اللينة وما ساده من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها . وافاقت المسارح والاوبرا من عبسات الملك الراحــل ومدام دمانتنون ، وكان فليب ، او بعض اهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الاوبرا ، أو الاوبرا ــ الهزلية ، أو « المسرح الفرنسي ، أو مسرح الايطاليين . واحتفظ المسرح الفرنسي بتمثيليات كورنيى ، وراســين ، وموليير ، ولكنه فتح أبوابه لتمثيليات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا اعظم كتاب هذا العصر محافظين شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان الان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ، ينتمى روحا واسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وفد على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليســوعيين فى فان ، فدرس فيها القانون ــ وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد أن قضي فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة زوجته وأبنائه بتاليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا أن رئيســا دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم بعض التمثيليات عن الاسبانية ، والتتمة التى كتبهــا افيلانيدا لرواية « دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشــيطان الاعــرج » لفيليت دى جويفارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الاعرج » (١٧٠٧) التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى باريس ، ويرفع اسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشــف لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطــان الغافلين . والحصيلة فضح مرح لمكائد البشر القذرة ، ونفاقهــم ، ورذائلهــم ،

وحيلهم • فترى مثلا سيدة تفاجا بزوجها فى الفراش مع خادمهاالخاص فتحل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون • واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب او استعارته ، وقد أبهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس • كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باريان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » • وقد وجد سانت ــ بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » •

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى موليير بهزلية تهجو رجال المال • وقد نمى الى بعض هؤلاء نبأ « توركاريه » هذه سلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة ــ ولعلها اسطورة ــ وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠ر٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها • وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرّتها الحرب • وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بها الناس • يقول الخادم فرونتان « عجبا لمسار حياة البشر • نحن نلتقط مغناجا ، والمغناج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » •

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام • وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر • وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتللانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك ــ باسلوب روايات التشرد ــ خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة ــ عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء • و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور • يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهم

وأساليبهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسبانى ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل ان التحق بالقصر كانت طبيعتى مترفقة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبى اقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الأحاسيس الرومانسية للصداقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما. ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبثا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا باننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » احب الروايات للقراء الفرنسيين ، الى أن تحدت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شيخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الاربعين ، ولكن كان فى قدرته ان يسمع ببوق ، فيا له من رجل محظوظ يستطيع ان يصم اذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء اقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان ـ سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط انه كان واحدا من « ادواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يغتفر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الأبناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فـــوق « الأدواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمى الىّ نبأ موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامي للملك الجديد .. ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان، وذكرته بوعد قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رءوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كثب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها في ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافـق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بانه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبثه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى أحكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارســـتقراطية ، ولكن مجـلداته العشرين سجلّ مفصّل نفيس لكاتب ذى عين لماحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتنون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوريين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضي قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ ـ الكردينال العجيب

لو صدقنا سان ـ سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادىء شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة اخرى الى سان ـ سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من اكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسة ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض ابدا ، زيفه مكتوب على قسمات وجهه ، ... ما من شيء فى رايه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للايمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه ان يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع .. .. والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب انه لم يستطع ، وفيه هذه النقائض ، ان يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى اوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بان يؤدى بالمؤلف القاسي الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بان دكلو يتفق مع سان ـ سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد ان أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من احضان فليب . على اية حال لابد انه أوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه ادار الشئون الخارجية ادارة لا باس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيرا لفرنسا . ذلك ان حزب الأحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش اسبانيا ، وخيل اليه ان ابرام اتفاق مع انجلترة سيزيح العقبات عن طريقه . فلو ان انجلترة ، وأسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد ، لطوقت فرنسا بالأعداء من جديد ، ولابطلت كل سياسات ريشليو ولويس الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب اتفاقا مع انجلترة والاقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٧ . وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربى ، ولبريطانيا؛ فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد سيطرة انجلترة على البحار . كذلك كان نعمة للملكيـــة الهانوفـرية الجديدة غير الآمنة في انجلترة ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالا تبذل مزيدا من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزى

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة فاشترك البيرونى ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلامار ودوقة مين للاطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا المؤامرة ، واقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو انجلترة في اعلانها الحرب على أسبانيا (١٧١٨) . وانهت معاهدة لاهاى (١٧٢٠) هذا الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات عـلى جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في حفل لاحراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الاسبانية ماريا آنا فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلابد أن ينقضي زمن قبـل أن ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فاذا حدث أن مات الملك الصبى خلال هذه الفترة ، فان الوصي يصبح ملكا على فرنســا ، ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة . ففى ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفـــارقات التـــاريخ طلب ملك بروتستنتى هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البـابا بأن يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذى شرفه قبيل ذلك فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقىّ الورع ماســيون في الاحتفالات التى أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من

الفرنسيين جماع الرذائل . أما دبوا فلحس بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المـــال الفرنسي ليُجلِس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليــه بقبعـــة حمراء (أى قبعـــة الكردينال) . وأوفى انوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، واصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢) ، وبعد سنة عين وزيرا أول للملكة براتب قدره ١٠٠٠٠٠ جنيه . واذ كان يتقاضي ايرادا قدره ١٢٠٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الأساقفة ، و ٢٠٤٠٠٠ من سبعة اديرة ، و ١٠٠٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدّره سيمون بمبلغ ٩٦٠٠٠٠ ، فقـــد بلغ ايراده الســـنوى الآن نحـــو ١٥٠٠٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته ــ التى كانت لا تزال على قيد الحياة ــ ما يبعثــه اليهـــا من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن ادركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثـة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساى ، طلب الى فليب أن يواصـل حكمه للمملكة ، وظل دبوا اكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى أول اغسطس أن انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل باموالة . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو ايضا انتهت . ذلك أنه بعد أن اتخم بالنساء ، وتخدّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقـــد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وانذره الأطباء بان أسلوب حياته سيقضي عليه ، ولكنه لم يكترث ، فلقد أترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعا خليلته مؤقتا . وكان يومها فى التاسعة والأربعين .

على أن فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرذائله رذائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيرا فاسقا ، ولكنه لم يكن أنانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيما ، شجاعا ، لطيفا . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلىّ ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أى انضباط . انه لمنظر محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأى ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصّب الملك العظيم ، ثم يترك الأهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيعُ الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لانه شرّف رجالا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسي بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتيابية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الأبيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسي حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيتيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذاكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا أثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثّق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه ابياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكاديميا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك .. .. شخصية فى دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الاهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بانه « نحيل ، طويل ، لالحم فيه ولا أرداف (٩٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتالق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمح فى قصر سو على الأخص ، فانه اثلج صدر دوقة مين بهجـــوه للوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرابط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بانه كان خيرا له ان يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموّه . واسوأ من ذلك انه فيما يبدو اذاع ابياتا عن اخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير انه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الانكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على اصحاب الأقلام . اما الوصي فكان فى وسعه ان يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لانهـــا كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخريات الموجهة لابنته ، لانها كانت صادقة فى اغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ اصدر أمـــرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » ـ وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمدابغها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى ـ سير ـ لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنئذ ، سليل الوزير الاكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براءته ويلتمس اطـــلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى ارجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاءة حينا ، وفى سطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما ـ حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدات كل جملة فيه بكلمـــة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رايت الباستيل والف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان ورعايا اوفياء . رأيت الناس اشقياء يرسفون فى عبودية قاسية . رأيت الجند يهلكون جوعا ، وعطشا ... وسخطا ، رايت شيطانا فى زى امرأة ... يحكم المملكة ... رايت البور - رويال وقد هدم ... رأيت - وهذا ينتظم كل ما رايت - يسوعيا يعبد ... رايت كل هذه الشرور ، وانا لم اجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام دمانتنون ، ولابد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شاك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب فى قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب الحقيقى فهو أ. ل. لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لانه تركه يتحمل تبعة كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت آرويه على القصيدة ، والحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم يصدق احد انكاره تاليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن قصيدة « رايت » المذكورة ، ومطلعها Puero regnante .. يقول كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، .. .. وثقة الشعب تنتهك (افلاس مصرف لو) .. .. والبلاد يضحى بها طمعا فى تاج ، وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » . وفى ١٦ مايو ١٧١٧ امر خطاب ملكى مختوم بأن « يقبض على السيد آرويه ويودع الباستيل » . وفوجىء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له بان ياخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه خيانتهما فى تفلسف - « علينا ان نحتمل هذه التواقه (٩٨) » وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه ابياتا تبين موهبة الثائر الشاب فى قرض الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما اعمق فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان) فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الاخطاء الرقيقة ، كل اولئـــك ربط بين قلوبنا الثلاثة . الا ما كان اسعدنا ، اذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين .كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير فى المستقبل ، رغباتنا كلها تحـــدّها مباهجنا الراهنة ـ فاى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا افضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وابت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللآلىء التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتهـــا فى الايام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمـــانين على زيارة المركيزة الارملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه ايضا ارق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجنا لا يطاق . فقد سمح له بان يرسل فى طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقية النوم ، والعطر ، وأن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مامور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الالياذة من الكتب التى ارسل فى طلبها ، وساءل نفسه : لم لا ينافس هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ ان فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المغامـــرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمته بين سطور الكتب المطبوعة .

وافرج عنه فى ١١ ابريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاتنيه القريبة من سو كتب الى الوصي رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانت قناة الوصي ثانية ، وفى ١٢ اكتوبر اصدر اذنا « للســيد آرويه دفولتير بالمجىء الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباستيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى anagram أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune) باعتبار الـ U هى حرف V والـ I هى حرف J ـ أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقرية ، ووقع ـ كما فى اهداء تمثيليته الاولى ـ بهذا الاسم « آرويه دفولتير ») ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى اى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية ـ أوديب ـ حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين الا يكتفى بتحدى كورنيى ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس ايضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق.م. اضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته ـ وهى بالضبط التهمة التى سجن بسببها آرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيليته اثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجراته المالوفه الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه اذن باهدائها لأمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس ـ انصار الوصي ، وأنصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، واخرى تسر الفريق الآخر . فارضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وارضي اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى ـ لجران ؛ اما احرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الانشودة التى تتردد فى حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هى التى تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفى النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة ان والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية فى أولى ليالى عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيىء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة وأربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيى ، وان أبدى لفولتير ان بعض ابياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . وأجاب الفتى المندفع بتورية فذلة : « لكى أهذب نفسي ساقرأ رعوياتك (١٠٤) » وأصرت باريس على أن ترى فى أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفى جوكستا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . أما الوصي فامر باخراجها فى مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف فى بلاطه .

وبعد بضعة اشهر نشر شاعر أفاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippigues الفليبيات » ، وهى هجائيات اتهمت فليب بانه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون في فولتير مؤلفا للقصائد ، فاكد براءته ، ولكنه كان قد كذب فى حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه الان احد الا المؤلف . وبرأه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينا عن نعيم باريس . فعاد الى شاتو صلى (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

واذ كان مؤمنا بان المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاءه الحاد فى فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، واجيز بمكافأة سخية للمعونة التى قدمها لاخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) » . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، واقرض النقود بالربا . وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٤٫٢٥٠ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٫٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا الا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية ـ آرتمير ـ (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشبة المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه باوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبرياءه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حيثما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتهما ، لاسورس قرب أورليان ، فاكدا له أن ملحمته تبز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بانه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالربوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلتره سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للربوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى دروبلموند بأن يصحبها الى الأرضي المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

اما فولتير ، الذى قلما كان يطيق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للاجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى اننى لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسته يواصلان رحلتهما الى هولندة كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسألته عن آرائه . واذ كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد اربعين سنة . وكل شاب مسيحى مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن انت تودين أيتها الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بامرك فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدراء أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى اريد أن أحب الله ، والتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر « على صورته » ليجعلهم حقراء ، واعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بآلام رهيبة ... ابدية » . وما ان خلقنا حتى فكر فى اهلاكنا . فامر المياه بان تغرق الأرض . وأرسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لنا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكانه ينتظر بروح الثار ان يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست اتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبده ، وساشينه بمثل هذه الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية ، ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره ، وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى ان نستقر على راى فى الدين واثقة كل الثقة بان الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبـك ، لن يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضـــع ، والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى (قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمع روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون وطريق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتمــاع للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت أعظم ممثلات العصر آدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة «ماريان» ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركيز دميزون اســتدعى الدكتور جريفيه من باريس « وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) » ولعله كان لهذه الأكواب المائتين الفضل فى « انقاذ حيــاتى » . ولم يتماثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعــالج نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحياها ذلك البدن الهش الذى فرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الآكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة . لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمى . واتخذت الملحمة مذبحة القديس برتلميو نصاً لها ، وتتبعت الجرائم الدينية خلال العصـــور ؛ الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الأله ملخ ، وأغا ممنون يتهيأ لتقديم ابنته قربانا للآلهة التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى نافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انتقدت البابوية لانها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يامل ان تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمةلروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل — فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية — كل أولئك ضحى بمفاتن الابتكار والأصالة ، ومع ان الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد اخيلة الشعر المنيرة . اما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامره ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدأ أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بانها تسمو على الانيادة ، وذهب فردريك الأكبر الى « ان أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندة وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلتره . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينا بالشهرة والمال دون ان يكدرهما مكدر . فقد اعترف به الناس اعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحته بالف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب اكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويفاخر بهذه الحياة . وراح يتحدث فى ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود . وحدث ذات ليلة وهو فى الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان ـ شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فساله فى خيـــلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه ـ ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا فى الكوميدى ـ فرانسيز ، واعاد روهان سؤاله . ويختلف الرواة فى الجـــواب الذى أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعــرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجابه « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع الســـيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستـــل ســـيفه . وكانت آدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلهـــا تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى فى بيت الدوق صـــلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق . وحـــذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فعسي أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان . ولكن صلى ابى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساى ، مصمما على المطالبة بـــ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه . فى تلك الليـــلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفســـه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة السجين أثنت بالاجماع ... على حكمة الامر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مســـلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلتره مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وافرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا امر أن يوصله الى كاليه . واعطاه اعضاء الحكومة خطابات تعريف وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى كاليه استضافه اصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلــتره

١٧١٤ ــ ٥٦

الفصل الثانى

الشـــعب
١٧١٤ ـ ٥٦

كانت انجلتره التى وجدها فولتير أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا ، امة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيدة التجارة ، واذن فسيدة المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليهـــا الكثلكـة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لجيب البرلمان المنتفخ . تلك هى انجلتره التى احرزت قبل ذلك التفوق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وانجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت تقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسدر « بوپ » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سترقب بعد قليل فى قلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . انها انجلتره التى احبها الفنان هوجارث وشجبها بقوة فى محفوراته ، انجلتره التى وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيهـا ضوءه كل موسيقار من ال باخ اذ غدا اعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات .. هذه البقعة المباركة .. فى انجلتره هذه (١) » ـ بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ ـ التمهيد للثورة الصناعية
١ ـ المؤيـــدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب ارجاء انجلتره فى ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبيـة الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول ابقارا سمانا ، والفلاحين يضجون فى العابهم الريفية ، وكبار المـلاك فى الريف ينظمـون شـئون

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا أعفوا من مضايقات هذا الريف ، ومللـه ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلتره سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ الف سنة . كل قرية - بل كل بيت تقريبا - وحدة مكتفية بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتقطع أخشابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانها ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدها وهلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخيط وتدبغ الجلد وترقع الأحذية ، وتصنع أكثر أنبتها وأدواتها والاتها . وهكذا وجد الأب والأم والأبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى أمسيات الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تمريض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجعة . وهى تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والطيور . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعاونين والأسرة كائن حى اقتصادى كما انها كائن حى اجتماعى ، وبهذا توافر لها مبرر قوى وأساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الابقاء على أساليبهم القديمة فى الحقول لقنعوا بما فى بيوتهم من حيوية منوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطلقوا قطعانهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، وبأن يصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثر عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سور الملاك معظم الأراضى المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، برأسمال أكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلتره فى ١٦٨٨ نحـــو ١٨٠ر٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلتره عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحـــد منهم ٢٠٠ر٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحة الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فانه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالمـــلاك الســـمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حـــوله من ارض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلى مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحســنة . والمزارع يصـــبح مستأجرا او « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلتره عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحى المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، واحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسورى الأراضي ان التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه ان يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب انهم كانوا على حق . واغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الاقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموســعة . فاستصلح حافز الكسب الأراضي البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الالات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واضيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المســـاحة المزروعـــة فى انجلتره وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفيـــة واللفت الأصـفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة • ثم جاء بالاغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الارض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية • وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ • واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين اشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخصيا بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماد (٤) •

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة ابيه ، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وارباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المسرفة ، ـ فالمزارعون ينثرون تسعة او عشرة ارطال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقى اكتظاظا يمنع الزرع من ان يزكو (٥) » • ودرس اساليب الزراعة اثناء رحلاته فى فرنسا وايطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج • وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى اربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا • ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال انابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار • ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبذورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش • وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احداث ما سمى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن ان تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر • ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من ان تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية •

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصـيب من الثروة النامية • فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافســـة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضبئل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله • فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفليان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هـو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمـال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لابد منه ، ولو وزع الربح الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر • ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » •

ومما خفف الى حد ما من التركز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم • ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة • فقد الزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا • وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم • وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الابرشية • وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ ـ ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) • حقا لقد كان قرنا قاسيا •

ب ـ الصـــناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتى ؟ لقد انتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » بيوركشير ١٠٠٫٠٠٠ قطعة قماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠٫٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، والى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فظل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى الواقع مصانع وليدة ، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليشاركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وانوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات اكثر منها مكنا . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضي قرنا تقريبا (١٧٣٠ — ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا اعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي حادا بالدرجة التى أوحت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قديمة قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتى كثيرة كثرة الشعراء ، والراسماليون فى هولنده ايام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرأ فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ — ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحله المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولمبس — هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا اساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى اعقبت سقوط وزارة ولبـول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق افضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضي الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترة ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت ـ أى الشيت ـ الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورتانية ـ التى ستدعمها بعد قليل حركة المثوديين ـ فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاءل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترة الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر(٩) . واقتضي الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فاكثر ، وظهر الطلب على وقود ارخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدّنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت اهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج باشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الان أغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا . وزعم « دَد » دَدلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك ـ اى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم او الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى انجلترة وفى ١٧٢٨ أنشيء أول مصنع انجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاخراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هذتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع الات الثورة الصناعية .

جـ ـ الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للانظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) • وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصدرها ، خشـية أن تهددهم بالتعطل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ • وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق • على أن النقل البحـرى كان آخـذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تتهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع • وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة • وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الاجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة • فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم •

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جـون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هـذا التاريخ بداية للثورة الصناعية • فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النساج باستثناءات صغيرة ـ اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبى النول بيد ، ويلقفه باليد الاخرى فى الجانب المقابل • ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت • فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكولتشستر اتهمه النساجون بانه يحـاول حرمانهم من قوتهم اليومى • ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعـه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضي كل ماله • فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الاهالى هاجـوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل • غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى فى النهاية (١٢)»
ووجد كى قبولا أكثر فى فرنسا ، التى تبنت حكومتها اختراعه وكافاته بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم اســـتعماله الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط باسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغــزل الى سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التى تمجد الماضى . فى ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتى ، آلة غزل يبدو انها مبنية على أسس اقترحها جون فيات ، وهى مجموعة من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا باى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله باقل جهد . وباع بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ، واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن فى ١٧٤٢ - وهو الأول فى سلسلة طويلة من مصانع الغزل فى انجلترة القديمة والجديدة .

أما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القــوية ، وتطلبت الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال وصبر النساء . وأقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففى مائة قطر كان الدولاب المائى العظيم ، الذى يدور على مهل مع جريان الانهار ، يسير منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافيخ ، والبكر ، والمطـــارق ، لا بل الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصــــدر الأهم للطاقة الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ، وما التركيبات الهيدروليكية فى زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ، ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا فى بلاد الجنوب الهادئة الريح ، ولكن فى العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية فى ادارة طواحين هواء توجه « قلوعها » الى « عين الريح » بونش فى اســـفلها يدار باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التى لا يركن اليها ، اوجهـا فى الأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر ، ثم بدات اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مرورا بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالومون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكرستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الأساسي للطلمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د ـ راس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين انه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترة اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع ـ اذا عرفناه بانه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع ـ لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدات مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٫٠٠٠ دولاب . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات وايواؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب راس المال . كذلك كان الراسمالى ـ مقدم راس المال أو مديره ـ ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على راس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفيـــة بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هيىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبيـــة المطالب المتزايده للجيوش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الراسمالى اقـدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمـله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدّد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدّل أجوره أو نوعية ناتجـــه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل ـ الذى سيعجب آدم ســمث كثيرا ـ التـــكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فاذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، واذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النساج يتقاضي حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الأسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هـــذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجعة أثناء العمل ، وكان معظم عمـــال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور ، لأنهم ادمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من الحماقة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهوّن من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكسبية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه فى الطوارىء أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء بروليتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضي قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم انفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، واصبحت اتحادات هؤلاء العمال - لا الطوائف الحرفية - هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترة فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلوسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم التدخل "Laissez - Fairc"

هـ ـ النقـل والتجـارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت انجلترة تتمتع بميزة ساحلها البحرى وانهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخـل ، فاتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، واخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخـراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الأقدام أن ينحـولوا الى الحقـول أو الغـابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبـات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين واوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية.

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحـلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post – houses فى جميع أرجاء أوربا الغربية. ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد او تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام امكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشسترفيلد (١٧٤٩) يشكو الحـال « ان رسائلنا على أحسن تقدير تنقـل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضـيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المالوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان اكثـر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سـائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون • وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترة ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام •

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوقة بدائية على نحـو جدير بالتصوير • فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياد الحمل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت الى بيت • أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتـات الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هنـاك عادة « أى عرض فى الفترينات » • وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والبدال سمى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة. gross ; فالبدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شىء من السكر الى المسامير • وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار ـ اذا سمح الجو ـ عينات من بضائعهم • ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسـواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسـطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربردج • فى هذه الأسواق ، فى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجـزيرة ليتبادلوا الحديث عن الأسعار والنوعيات والكوارث •

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار • وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكميـة فى النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغـور الانجليزية من ٣١٧٫٠٠٠ طن فى عـام ١٧٠٠ الى ٦٦١٫٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١٫٤٠٥٫٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) • وضـاعفت لفـربول حجمها وأرصفتها كل عشرين سـنة • واقبلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميـل التى تخلب الألباب • وبلغت

ارباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا أتاح لها ان تغرى بالانضمام الى مساهميها خمسة عشر دوقا او ايرلا ، واثنتى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية فى انجلترة الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى أن انجلترة استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم اصحاب السفن لفربول ، وساد اصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٫٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه فى وانستد من أشهر مشاهد انجلتره . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم اقطار أوربا ترى املاك الأسرة - اى الأملاك الوراثية - التى تميزها الألقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى اهم اسباب التمايز . أما فى انجلتره فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الاغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (اى حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المال

كان المصرفيون الاوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التى يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب • واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال فى وقت واحد ، فقد كان فى استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة • وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك فى توسيع الاقتصاد الاوربى • وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبانى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما • ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفى حتى عبر حدود معادية •

وتألفت فى انجلترا شركات محاصة كما حدث فى هولنده وايطاليا وفرنسا • ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا اسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست فى لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) فى ١٦٩٨ • وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا فى المضاربة باسهم الشركات ، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون فى أسعار السوق رفعا وخفضا • وقد وصف ديفو فى ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشترى ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بان يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رءوسهم ، ويلمحوا بان هناك أخبارا سيئة من الهند •• وربما باعوا فعلا بعشرة الاف أو ربما بعشرين ألف جنيه • وللتو ترى السوق •• وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشترى ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة فى المائة ، وأحيانا أكثر • هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه •• فى الشراء ، ولكن فى

تكتم وتحوط ، حتى يشترى - بعد ان باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة فى المائة - اسهما بمائة الف جنيه ، باقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا اكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) » .

ولم تكد تفتتح أسواق الاوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (اى مشروعه الوهمى) فى انجلترة ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تاثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٢ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٠٠٠ر٥٠٠ر٣ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٠٠٠ر٠٠٠ر٣١ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد اسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الاسبانية فى امريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الاوراق الحكومية ليستبدلوا بها اسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بان مرسوم احتكارها يعد بارباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترة ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة ايام على عرض الشركة قبولهما الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم اسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ٥ر١٢٣ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الاسهم لأعضاء الوزارة ولاثنتين من خليلات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال ان المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بارباح من اموال لن تفى بالغرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بان المشروع سيفشل ، وانه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغى وضع حد ما على الاقل لارتفاع اسـهم الشركة . ولـكن مجلس العموم ابى الاستماع الى تحذيره . وفى ٧ ابريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفى ١٢ ابريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيـه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفى ٢١ أبريل أعلنت ، وهى منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التى أصبحت الآن ملكا للشركة ، انها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة فى المائة ، واستغلت الحماسة التى أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الأسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها فى ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها فى ٢ يونيو ، وفى يوليو بيع اصـدار جديد بسعر ١٠٠٠ر١ جنيه للسهم . وتهافت المجتمـع الراقى كله على الاكتتاب . الأدواق والقساوسة والسياسيون والموسـيقون والشـعراء ، فاصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا فى شارع كانكمبوا بباريس فى الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم فى الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعـات ، وفى كل ليلة يحسب الرجال والنساء اى ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو انهم اشتروا فى تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الأسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصـدرتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشييد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحـــركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من أسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى الف اكتتاب كل منها بجنيهين قبل أن ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصـــغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجذوب. وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمـان بذلك - وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة. وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضييقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بان مشروع لو أو « فقاعة المسسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جـون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال اغسطس كله توالى هبوط الأســـهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيها ، ثم الى ١٣٥ جنيها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وافلست المصارف التى كانت قد اقرضت المال بضمان شهادات اســـهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع ارجـــاء انجلتره بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشـــعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمـــان للانعقاد . وفر امين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من الســـجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلتره . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤٫٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض اعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاط المديرون المذنبون فى زكيبة ويلقوا احياء فى التيمـز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للمبـــارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديرون ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ، وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين - منهم ادورد جبون ، جد المورخ - فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة من ثروتهم . ولوحظ أن الســـير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجـــلا « ذا مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد اشار بالاعتدال فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع مصرف انجلتره وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحـــر الجنـــوب من الاحتياطيات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنهـــا كانت تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطـــة حتى عام ١٨٥٣ .

٢ - مظاهر الحياة فى لندن

يقدر الاحصائيون الأجرباء سكان أوربا بنحو ١٠٠ مليون نســمة فى ١٦٥٠ ، و١٤٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ ســـكان فرنسا بعشرين مليونا ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيـــة أوربا ، والســـويد والدنمرك (مضافا اليهـــا النرويج) والاقاليـــم المتحـــدة ، بثلاثة ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى أوربا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على « اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانســـانى » (٣٦) . ولكن علينا الا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العـامة والعـلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين • ويبدو أن سكان انجلتره وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا اربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) • وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غذت الصناعة والتجارة وتغذت منهما • وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥ر٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لانها « تضخمت »(٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥ر٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امســتردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما • وبلغ سكان لندن عشرة أضــعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى اكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث اكبر المدن الانجليزية • وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة •

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجــارة والمستعمرات الانجليزية • فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط ان تبحر مصـعدة فى التيمز ، ومع ان أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغـلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيأ لنقل البضائع من الســفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شـاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة • ولم يكن شاطىء النهر انيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحللات ملبسا وخلقا ، القذرات مظهرا ولفظا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) • اما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيــه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غــدوا ورواحــا • وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور او غيرها من البلاد — وظـل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع انها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضأ الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر الف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية وتصرف المطر . ولم يكن هناك افاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج باصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقعقع حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون — وكثير منهم نساء — يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنو الشوارع يصيحون بالأغانى الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمل من الناس فى صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدأ تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . واخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بان يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام الا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيطهرها منظفو المداخن ، الذين يتسلقونها بضغط كيعانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب او بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسي لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حيين من أحياء لندن ـ هما وابنج ولايمهاوس ـ كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . اما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعثا فى الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال او قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . والفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رءوسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . اما لصوص العصابات الاقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيثون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقترفون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالتكم (٤٢) » . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطر الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكانه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئا أكثر كثيرا من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الضخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والنساك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والاحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادى ، ودكاكين الحرفيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويح فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكسبية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والاوبرا — عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠،٠٠٠ نفس .

٣ — المدارس

كانت الحياة فى انجلتره كما فى غيرها من الاقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الاطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للاحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن اهمال المولدات والأمهات .

فاذا كان الأبوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨,٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . اما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . واما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى »(٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادىء القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادىء القراءه والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوضيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ايتون ، ووستمنستر ، ووينشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى - حيث يستطيع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفاخرون بها فى المستقبل . واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة - من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين - هؤلاء انشأوا أكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة ـ وهو تعليم أنسب لأبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون الى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون scrvritors أو sizars) مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والافكار . وأبدت كمبردج استعدادا اكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشسترفيلد بأنها « غارقة فى احلك الظلمات » . أما اكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وباسرة ستيوارت الساقطة ، ولم تسمح لملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم سمث ، الذى كان يطلب العلم باكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها الا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة . وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكن يتلقين تعليما اوليا فى مدارس القرية أو المدارس الخيرية ـ فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الابرة ، والغزل ، وقليلا من الحساب ، وكثيرا من الدين . وتلقى بعضهن التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدى مارى « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ، والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا يغتفر لنا اكثر مما يغتفر اقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم ... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بان الرجال كانوا يبقون النساء فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . واذا كان لنا أن نحكم من دخول محظيات الملك ، فان النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ ـ الأخـــلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا فى ذلك العهد مما هى اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حـد لم يكد يعرف ثانية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبى عدد المومسات بخمسين الف فى لندن ، يوجدن فى حانات المدينة ، وفى الفنـــادق الصغيرة على الطرق ، وفى حدائق المدينة ، وفى المراقص العـامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن فى شارع اكستر وحى ســتراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمترددين من الزبائن . وفى « دروری لين » (شارع المسارح بلندن) ـ كما تغنى الشاعر جــون جـاى فى تمثيليته « تريفيا » : هى التى تمشي فى الليل بخطى وئيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنخليف ، وسيماء المومس ... وباصوات التمــلق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا امسكت احداهن وهى تتحرش برجل ، زج بها فى السجن وضربت بالسوط ووضعت فى المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » فى عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الام نيدهام فى المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهـــور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشـهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم أو يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بالرشا ، أو يخرجهن صاحبهن بكفـالة ، واحس بعض حفظة القانون ـ ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » سـابقات لهم ـ بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجـال .

واغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل، مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرذيلة علانيـة ، ولكنهـم احتقروا الفضيلة سرا .. وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذى عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن واكثرها شعبية .

والف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهـم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبأ القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمـة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليـو روت الجريدة أدانة « روبرت هـويل ويورك هورنر بفتحهمـا بيـوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرذيلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى ادينت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون ... حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لنـدن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الاقل فى روايات رتشردسن وفيـلدنج ، ولكن معظـم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقـة والديهـم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترة ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرين قانونا اكثـر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الاماكن فى شـارع فليت او على

.مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) ٠ وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص ٠ وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة انه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة ٠ وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحدون ، ثم يرحلون ٠ ورغبة فى القضاء على هذا المنكر أصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر اى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس انجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات ٠

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترة (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء ٠ وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثالا فى ذلك ــ والناس على دين ملوكهم ٠ ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجريف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » ٠ ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاى » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسأل زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ ٠٠ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجل اخر (٥٥) » ٠ على أنه يمكن القول عموما بأن اخلاق النساء كانت فى انجلترة خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال ــ صبورات ، مجدات ، وفيات ٠ وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا ٠ فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقرأن فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمر وجوههن خفرا مغريا ، وأن يغشي عليهن فى لمح البصر ٠

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى المليدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد القيا بنا فى مرتبة أحط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحماقتها أن ينكرا ذلك انما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنان قد انزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بانه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء فى انجلتره قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، وندر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المالوف للمتبطل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نسترفيلد يقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس اجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوبر ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارث سماها « رحلة الفاجر » نرى رجالا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعباون بانذار ينبئهم بان المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة★ . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتبة بسرقة أرباب عملهم ، طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان اكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيها (البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ، باعتبارها اسلم والطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ، وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمور فى كل مكان ، وكان ١٫٣٥٠ بيتا من بين ٧٫٠٦٦ فى ابرشية هوبورن تبيع الخمر . وأغضي ملاك الاراضي - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ، لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض المنزرعة فى انجلترة تقريبا يزرع شعيرا . وأخذ الوسكى يحل عند علية القوم محل النبيذ لان الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو وأوبورتو ، وادخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة مخمورا . وكان بولنبروك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ، أما روبرت ولبول فقد علمه السكر ابوه ، الذى عقد النية على الا يراه مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمور المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٫٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى ٥٫٣٩٤٫٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل ان الأطباء أنذروا الحكومة بان شرب الجن قد زاد معدل الوفيات بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة لافتات تعهدوا فيها لزبائنهم بان يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب . ففرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسما على الجن قدره عشرون شلنا للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيها فى العام نظير الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة . وأفضى الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجار به سرا . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفا ، وعدد الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة . فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين جنيها ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واغتبط الشعب وراح يشرب ما شاء . وفى ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للالغاء أمام القضاء) الى تحسين خفيف (٦١) . وأنار الفيلسوف باركلى الموقف بتنديده بالطبقات العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيىء ، وبانذاره اياهم بأن « أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعا (٦٢) » .

كذلك كان المستوى الخلقى منحطا فى ميدان المال والأعمال ، فجنى بعضهم أموالا طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ، ومن خلط الخبز بالشب والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة السن بالكيماويات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات للحد من هذه الاعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق « كل انسان .. فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لاكراه الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعدا) « كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال او تخديرهم ، أو لاقناعهم بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل اسكار الضحية ، اذ كان فى الأمكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو اكثر من حياته • ذكر الاميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ اقدامهم البر ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى اخرى •• دون أى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) »• ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن •• فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » • وكان اكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعلا الباقين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدهم اعتدادا بأنفسهم •

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات • أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزنوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين • وبمقتضي معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت أسبانيا عقد « الأزينتو »، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٫٨٠٠ عبد ، من فرنسا الى انجلترة • ومن بين ٧٤٫٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٫٠٠٠ ، والهولنديون ٤٫٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٫٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٫٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٫٠٠٠ — وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) • يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على اقل تقدير ، حملوا اكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » • واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزنوج للخدمة فى البيوت • واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الآبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة •• للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) • وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاء مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد • وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الأخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشترى كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافىء لسلطانهم الاقتصادى ، يشترون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٫٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسي العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر - حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء - وان كانت سيئة الادارة - للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيهم ؛ وهناك جمعيات - تسمى « أندية الصندوق » - للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلتره مثلا رائعا - هو الأول فى التاريخ الحديث - للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حليفتها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ — ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة . وخير ما اسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هـذا الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلىء البدن ، ابيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة ارضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الاطفال الذين يلقون فى العراء او تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم او اسـم اب يطلق عليهم ، واقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس بانشاء مستشفى للقطاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنـه « المسّيا » التى عظمت قيمتها الآن ، وادار حفلاته موسـيقية غلت عشرة آلاف جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الاوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة فسيحة من المبانى والملاعب اصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ — الجريمة والعقـاب

كان اهل انجلترة فى القرن الثامن عشر سلالة صلبـة تمرسـت بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صـعب عسـير الا الموت . ومن الامثلة على هذه الصفات أن عريفين اقتتلا بغير سلاح حتى مات كلاهما ؛ وان رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهمـا بجـراح مميتة ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مثخن بالجراح أمام الضابط نفسه وأعاد الطلب ، فاجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بانه جلد ٢٦٫٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ، ثم جلد اربعة آلاف اخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وافاق منها وهـو مبتهج ، وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علنا مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب • مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضي على المرأة التى تدان بخيانة وطنها او بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) • أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا • وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير • وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت • على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم باعدامه ، واذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته •

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبى الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغانى الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكيث فى « أوبرا الشحاذ » • وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين امسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات • فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيربن ، وجوناثان وايلد ـ هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة • أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قربها كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه • وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالربح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته • أما تيربن فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما اذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيربن الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك • كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون • ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بان يرد لهم بضائعهم او مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليلات ويعيش فى ترف قراية خمسة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبث بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مئات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن اكثرها فى « حقل الاربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر أن كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضي عنها بحجة انها تشجع على التادب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبارز الا فى الاصابات المميتة ، واذا استطاع الخصم الحى أن يثبت انه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى اكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والاوبرات ، وهناك يلتقون باشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسي (ان جاز لنا أن نسميه كذلك) لأكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٫٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢٫٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتور جونسن فى رجل برح الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على راى كوك الذى ذهب الى أن « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان اى ملك ، ولعـــله كان يثنى على « الهابياس كوربس » ، ومحاكمـــة المتهمـــين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية ٠ ولم يكن بالأمر الهين حقا ان يحرم اعتقال اى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظـــرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة الا يخل بالنظام ، وأن من حقه ان يقول ما يشاء ، الا ان يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا ٠ ولكن مشرعى انجلترة كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد ٠ لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تفشي الجريمة وتنظيمها ٠

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستانف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر او يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات ٠ وكان هؤلاء القضاه يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة ٠ وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصرت على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، أو تنفيذ الوصايا ٠ وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها ٠ وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يراسها قاضي القضـــاة ٠ أما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء ٠ وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب ٠ فقد أعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكمت دوقـــة كنجـــزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدينت بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، اطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم ٠ وظلت اللاتينية لغة المحـــاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن أشد الألم ٠

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بان يوكل محاميا اذا كان ميسور الحـال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه ٠ فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفـع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ؛ وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم ٠ أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقـوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء ٠

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدع الأنوف أو يصلم الآذان ٠ ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديدو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى ٠ فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عـربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) ٠ وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهـره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحـديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ ٠

وطوال القرن الثامن عشر اضافت قوانين أصدرها البرلمـان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت ٠ ففى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ ٠ فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وحرق الممتلكات عمدا ، وهتك العـرض ، واللواط ، والقرصـنة ، والتهريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من اربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتهـا ، واطلاق النـار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشـتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الارانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات ـ هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى ايام جورج الاول والثانى والثالث • وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية • وربما كانت الى حد ما النتيجة ـ والسبب ـ لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها اعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليــوم من عادات التزام القانون • وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، او تحــديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا باقل من المبلغ الذى يجعــل السرقة جناية كبرى • وفى وقت الحرب قد يصدر عفــو عن المذنبين شريطة ان ينخرطوا فى الجيش أو البحرية •

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، او الجلد ، أو الأشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات • وقضي قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهــم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » واسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهــاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حينا • وقدر احد مؤلاء المتعهدين بانه يخسر سبع شحنته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) • ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية •

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لان السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها • فقد كان السجين الجديد يكبــل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس • اما فراشه فمن القش • واما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج • واذا استثنينا سجن نيوجيت ، وجدنا انه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون • فكانت الأوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «حمى السجن» ـ وهى فى الغالب التيفوس أو الجدرى • وذهب جونسن الى أن ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » • ويلغ نتن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى « الاولد بيلي » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى افشوها أن اربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضي بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دائنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته ـ وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام افضل ، وبحريات أرحب ، وبالاستئناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضآلة جرايته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونسن أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين الف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلتره وسيلة اكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونسن ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تسوية السرقة بالقتل ... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت اقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الانبل لجون بول . ففى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلتره انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد اقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على راسها - للتحقيق فى احوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلتره لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون ان ينتظر مجىء جون هوارد والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوجلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلتره . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلتره والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . واصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بوب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوجلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة او فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث او عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنداما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رءوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها ان تبهر الناظر اكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلت منها دلاية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها باهدابه تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم وبثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضي الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفا . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما أحتوت سيفا . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضي الركوب فى الحدائق العامة او خلال الصيد بالكلاب ارتداء ازياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمى « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلانا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

اما النساء فكن اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خاطفا عن كعوب متلألئة واقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع احفز لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضي حمايتها من أن تحرقها الثريات . واخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجبه

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريرى المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح باى تردد من جانب الذكور المحدقين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرح على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء — أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج — ابتداء من هذا القانون وبعده — اى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور او الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضي القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهن باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضي على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه — أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه ان يخلع كل ملبس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه أى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفضه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باعتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل اسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرابزينات المتينة ، والمدفآت من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشي بالشعر ، وتنجد بالجلد . اما الأثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تتشابك فيه النقوش ويتلالأ بالتغشية بالذهب . وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحد ، وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الاثاث فى البيوت الانجليزية .

وكانت البيوت ندفأ بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان . وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهددها دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦ يقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعننى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح . وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة . وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون اكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فياكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون فى المطابخ لأنها واسعة جدا . اما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة . والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدءون عندها الشراب والتدخين وشرب الانخاب وقص الحكايات . وكان الغداء وافرا ، ولكنه كان اول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ، والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختام لمنجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بامان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الأساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من أتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندر أن مضى يوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق أدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وفق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك نسناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربى الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترة من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساى - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسياجات المقلمة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول وريتلاج نصمم على هذا النحو ، ونستطيع ان نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الأوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما أديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الاقل جزءا من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة • وشاركت التاثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس • وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين اكثر من أديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباس كلاسيكى • واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم • وكان تشارلز بردجمان قد بداها على تصميم نظامى ، فاعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فاصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلتره وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو •

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية او القطا او الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن او الأرنب البرى المرهق • اما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة - بين النساء أو بين الرجال على السواء • وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايير معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون - الى عام ١٧٤٣ - بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم ادخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى انها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول • وكان من الملاهى التى اعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ - ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت احب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

اما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن ان يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وامان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التنكرية ، ويجلسوا تحت اغصان مضاءة بالمصابيح ، او يرشفوا الشاى ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتمسوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى اسمى فى وسط قوم من طبقة اوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان ابوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وابدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والأكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . وأخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرء

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

أما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا أساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوقة) ذكرى سوقهم ببذاءتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم . ولم تكن السيدات انفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحة .

أما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة اكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقصاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون بيباتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الأخلاقيين أمثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة أخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبان يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق أو السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يطهر المسالك الأنفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويهدىء الأعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقة

بصاحبها (أى العلبة) افرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينـــا ، ورسام المنمنمات ، ارق ما جاد به فنهم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وادارتها علـى زبائنها ، ووفرت الاقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هـذه الفترة الى اندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمناى عن عيون الرقباء . وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الاندية مماثلا لما كان عليه عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو ان الماسون (البنائين الاحرار) بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » ـ نظم بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الاندية الشرب والقمار والدس السـياسي ، ولكنها علمت الرجال على الاقل نصف فن الحديث . اما النصف الاخر من هذا الفن فكان مفقودا ، لان الاندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد الادب الارفع والفكاهة الارق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما هناك . فلقد كانت انجلتره بلد الرجال ، اما النساء فلم يكن لهن فى حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلمـــا حاولت الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كانها مخلوق غريب الاطوار لا يعرف اين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا ان يستخدمن مهاراتهن فى الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن . وكانت نهاية الاسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم ان ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت ان يغامر بالمرور وسط الاتباع ، والسقاة ، والخـــدم ، والقهرمانات ، والبـــوابين ، والخادمات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين عند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيـل خارجا فى عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمـــردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر افضل • وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادمات حلى سيداتهن أو ملابسهن •

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه الميــاه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط • واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا • اما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للألعاب، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » • ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشسترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحـــر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهـــر منتجعـــات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صـــيادى الســـمك المتواضعة •

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث • فهناك ، وســـط أرقى البريطانيين من ذوى الأسقام ، يشرب الرواد ـ ويســتحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخمـــوا بالغــذاء الطيب • وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت اول غرفة ذات مضـــخة فى ١٧٠٤ ، واول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت • وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير • واعاد جون وود وابنه بنـــاء المدينـــة بالطـــراز الكلاسيكى كما سنرى • وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية • فحظر الســـيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى ان يجعل المبارزات ـ فى باث ـ عملا ضارا بالسمعة • واقنع الرجال بان يلبسوا الأحذية المكشـــوفة بدلا من الطويلة • وكان هو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهباء ، ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق والمبانى ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . وأخيرا وفد على باث جورج الثانى ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينا بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن ايرل تشسترفيلد الذى كان يعشق المدينة كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البلاطات بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع انك ستلتقى فيها بارتباطات دون صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونبالة دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة باخلاق سيئة ، وكل الرذائل والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ ـ تشسترفيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرهف الحس . فقد تمثلت فيه خصائص ارستقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا . ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات طبقته ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرهف مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب ستانهوب ، ايرل تشسترفيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة جورج سافيل ، مركيز هاليفاكس ، المساير الماكر للعهود الملكية السابقة . ماتت أمه فى طفولته ، واهمله ابوه ، فكفلته مركيزة هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم خاص ، فاصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجهما جزءا من عقله . وأنفق سنة فى كمبردج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى لاهاى قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عينات من النساء تجربة

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيى فى الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالنى الناس واحدا منهم ، وقد حيانى العديدون منهم بأسمى تحيـــة يمكن ـ فى اعتقادهم ـ أن يحيوا بها انسانا ، وهى : « سيدى ، انك على شاكلتنا تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، عالى الصـــوت ، آمر ناه ، اغنى وأرقص اثناء سيرى ، وأهم من هذا كله أننى انفق مبلغا باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلتره عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى اصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهوب ، الوزير الاثير لدى جورج الأول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ، فظل احد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الاحرار فى مجلس العموم. فلما أصبح ايرل تشسترفيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيمـــا بعد انه « مجلس ذوى الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاى سفيرا (١٧٢٨) قام بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا اكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خليلة تدعى الآنسة بوشيه ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الأول غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتيـــه بمهر ملكى ، ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبيذ . وقد عاون على هزيمة القانون ، وما لبث ان طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافـح ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما قفل الى انجلتره واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصـحيفة جـديدة تدعى « انجلتره القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين الف جنيه. وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الاحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاى ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلتره فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ارلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضاها فى ارلندة انجح سنى حياته . فقد انشا المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له انهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلتره من اسكتلنده ، وتوقعت انجلتره ثورة فى ارلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشسترفيلد .

ورد الى انجلتره وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرفة واللباقة اقترف غلطة مدمرة . ذلك انه تودد الى خليلة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفأ كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلط عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى الفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، أن أجعلك أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط تعليم فليب ، لا ليجعله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتأ يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الأنيق من النـــوع الانسانى • وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينـه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تأدب مقيّد أو مزعج دائمـا •• فالرجــل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص عـلى الا تكون تحياته مزعجة • وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم • وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب • وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » •

وعليه فحين بلغ فليب الرابعـة عشرة أرســله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بانها ستنهى فضائله أيضا • وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحـياة أن أراد ان ينفع حكومته • والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنـون الأدب عن طـــريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل ــ الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون ــ من الكُتب الى البشر • قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم ••• فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتيوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » •

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووســائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هــذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حـذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موســيقيا (١٠٢) • وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوربية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينهـــا ودساتيرها ، ماليآتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروبير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الأقل ، ان انت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسيء الظن بأى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهواءنا هى خليلاتنا ، اما العقل فهو الحليلة على أحسن تقدير ، يُسمَع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يُعبأ به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى أحكم الحكماء واقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك أرهف واحوط . وادرس انساب اهم الأسر ، لأن البشر أكثر افتخارا بانسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) . وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتاثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكنّ أزواجهم .

أما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والنضج . واكتفى بالاصرار على أن تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن ياثمن معه . وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه الا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« اكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون باسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق انك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك .. فاذا لم تلق منها اذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم أفضى الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برايه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفضي اليك ببعض الأسرار التى سيفيدك جدا أن تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص اشد الحرص على اخفائها وعلى الا تبدو

ملما بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا اطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة .. والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلاطفهن ، ويتملقهن .. ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الامور ولا يأتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بانه يفعل الاثنين، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لانهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) .. وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراهة ، ويقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يعلمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح أنهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضفين عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الايرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحمق ، ظالم ، لان النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الاذى اقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الافراد ، اما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما ان نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، اكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال استاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الاقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة . واذ كان الايرل أرستقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم اعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع ان تحسب ، وانا واثق انك لا تحسب ، انك ارقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حباك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضي القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيان دون موجب بأى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . واقول لك عن نفسي اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتاثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحة من الحياة ، والثانى هم اولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر . اما عن نفسي فقد الفت أن أرانى وانا جالس الى (الكاتب) اديسون او (الشاعر) بوب فى صحبة اشخاص يعلون عنى علو جميع ملوك اوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ ، فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ... وان شئت أن تقنع غيرك فليبدُ عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك كما تودع ساعتك جيبا خاصا فلا تبرزه .. لمجرد الاعلان عن نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك ما استطعت (١١٥) .

« وامسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب الثقافة والحكمة ، ولو ذممته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك أن تقرأ تواريخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الاباحية التى تهاجم الأديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة . وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ، لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه، فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من ضمان واحد . لذلك فاينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن يسخرون بالدين كله اعلانا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدعْ كلمة أو نظرة تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا فلتفصح رزانتك الصامتة عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين أول مراحل الثورة الاجتماعية ، « اتنبأ انه قبل ان ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان أحوال فرنسا .. .. تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر ... والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الأعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . ورأوه يقامر مقامرة المستهترين أو الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتادب ، وعلينا أن نتذكر انه كان يهيىء ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير ان الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلى الماضية (وهو حق بكل تاكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) » . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتن عن الفوضي الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فان نتائج تلك الرذيلة انما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة(١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، واذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادىء الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد امتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما امتدح سياسيى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد آثر الألفاظ الانجلو ـ سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت ـ بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأى رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أرطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التى تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتألق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الأبوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى ساحبك حبا جما ما دمت تستاهله ، ولكن لن احبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الاخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشسترفيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠).

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد ان اقعده النقرس واصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على ارجلى الثلاث ، ولكن يعزينى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وساختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بان « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بان الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) اجلب للذة من الآذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكنا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وانها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى.

الفصل الثالث

الحكام

١ ـ جورج الأول : ١٧١٤ ـ ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيتبين ذلك عما قليل فولتير ومونتسيكو • فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه فى المانيا ، ملكا يقضي الأجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته •

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى المانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك ـ لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ ـ ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف او الجويلف • وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ • وتزوج ناخبها الأول ، ارنست اوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترة • وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ •

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناءة هذا الميراث السعيد بزواج تعس • ذلك ان زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجز مارك ، قائد الحرس الجميل • واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، واغلب الظن انه أعدم (١٦٩٤) • وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وابطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن • وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترة •

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارتبده باسم جورج الاول • وفى سبتمبر وصل الى انجلتره ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى • وجلب معه ابذه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمـــان ، وخليلتين ، شارلوت فون كيلمانريجى ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجتن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيســة كندال ، وربما تزوجها • ولعل انجلترة كانت متقبلة هـــذا الترتيب باعتباره متفقا واخلافيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تبيع نفـوذها باثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الفساد والرشوة ، وكان جواب جورج أى سال ولبول : الا بتقاضى هو نفسه اتعابا لقـــاء توصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الاول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارع الطويل عسكرى السمت ، « رجلا بسيطا فظا » • لا يكترث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد اثبت بسالته فى اكثر من ساحة قتال • وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل ابله أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بانه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو انهم تركوه بفعل ذلك (٣) » • وما كان احد يتوقـــع ان هذا الرجـــل سيشعر بالاطمئنان واليسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب • فلقد استأجرته أولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة أخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هيمنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو ايضا ؛ ولم يستطع ان يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية • واعتقـــد انهم أدنى من عشرائه الهانوفريين • فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهـــرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهـــد ليوجـــه الأموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة •

وضاعف من محننه كره ابنه له لأنه اعتبره قاتلا • ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتشاجر مع وزراء الملك ، وأفصح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على اقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكى عن أبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشسترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومه مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبى التورى (المحافظين) والهويجز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والقضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات - وهم لم يتجاوزا ١٦٠ر٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) - وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزكيه المالك الرئيسي للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تاييدهم اما للنبلاء أصحاب الالقاب ، واما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الاحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الاحرار ، وهكذا أرسي نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رآسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن أول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره ـ الذى اتهمه المحافظون من قبل ـ لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش . وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهيم ، وهناك عانى آلام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الأمة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحـــكم الذى أصدره عليه بولنبروك ـ « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملتـــه ، وهى ســـارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقدس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك ان تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت ابدا أن تقتسم قلبا ويدا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين اعادت قراءتها شعرت « بأننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركتها لتعيش (٩) . ولابد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك انه بعد ان طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الأسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لازدرائه اللاهوت المسيحى ـ بعد هذا كله فر الى فرنســـا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، واصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترة ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليـــه بالاعدام .

وأوشكت حركة رد الاستيوارتيين ان تطيح بعرش جورج الأول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ؛ وعامة الناس فى انجلترة ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بأنها أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى - كل اولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على انجلترة .

وكان جميس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسن بالعرش » . كان قد ربى فى فرنسا ، واشربه المذهب الكاثوليكى معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته فى انجلتره اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخيين (اتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل باشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بأنه يؤثر أن يكون كاثوليكيا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البرىء من الايمان والمبادىء ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه مكافاة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطىء تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الأحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الأخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى انجلترة ، ثم أبحر الى اسكتلندة واستنفر الاسكتلنديين لينضووا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل وستمائة خيال ؛ ولكن ادنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

والمصادرة الملكية لجميع العصاة . وعبأت ثلاثة عشر الف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم امرت دوق آرجيل قائد حاميتى ادنبره وستيرلنج بأن يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عند شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع اى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير وتحمى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوقها جيش حكومى واكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر).

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الاحداث قبل أن يقلع من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد أنذره بأن ثورة استيوارتية لن تنشب فى انجلترة . ولكن المطالب بالعرش دفعة للمضي فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠،٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكان . فلما رسا على ارض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحفل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتئابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يضف شيئا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من انهم لم يروه قط يبتسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . اضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملاريا ، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فامرهم بالتقهقر الى مونتروز ، ويحرق جميع المدن والقرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل آرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر اولئك الذين تضررت أملاكهم . فلما اقترب جيش آرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، واعدم سبعة وخمسون ، وتقرر اعدام اثنى عشر نبيلا اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، اذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الامل فى ان يرسل فليب اورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترة ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا • ومن ثم أقام حينا فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما •

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة • وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشترى أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » • واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترة ، فانه اتصل اتصالا كاد يكون شريفـا بمارى ديشـان دمارسيى ، وهى مركيزة فيليت الأرملة • وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين • وكانت ككثيرات جدا من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبه اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس • وهناك زاره فولتير كما سـبق القـول (١٧٢١) • قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » •

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برءوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا • وقد قضـت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين • ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين للاستيوارتيين • وتفاديا لهذا الخطر قرر البرلـمـان ، بمقتضي قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضي بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين • قال المع حفدة ملبره « كان هذا أجرا وأكمل تأكيد لسـيادة البرلمان عرفته انجلترة الى ذلك الحين (١٣) » • وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضا من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلا أن الهانوفريين أضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكوا •

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة ابرم ستانهوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا انهى التاييد الفرنسي لمطالب اسرة ستيوارت ، والتاييد الانجليزى لاسبانيا ضد فرنسا ٠ وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الاول ان يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان ٠ وفى ١٧٢٦ ارسلت اليه زوجتـه التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدته ان يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله ٠ وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية ٠ وتقول رواية أن عرافا تنبأ بأن جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته ٠ ففى ١٧٢٧ بدات صحة الملك تتدهور ٠ وفى يونيو غادر انجلترة ليزور بلده الحبيب هانوفر ٠ وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحـوى لعنة تركتها له زوجته وهى فى النزع ٠ فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا شديدا ،، وما لبث أن قضي نحبه فى ١١ يونيو (١٤) ٠

٢ ــ جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى أصـــدرته العناية الالهية وامهلت تنفيذه امهالا غير معقول ٠ وحين قـدم رئيس اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط ٠ وقال بعضهم انه تكتم أمرها لانها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترة ، وزعم آخرون انها تركت لحفيـــده فردريك لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) ٠ ولكن التـــاريخ يجهل الحقيقة ٠

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، ففى الخامسة والعشرين أبلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) ؛ وفى الستين سيقود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) ٠ وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ؛ فيصيح غاضبا ، ويغدق على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدى الغباء » و « المهرجين(١٦)» ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التى فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول فى جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام فى ربوعه . وكان كابيه كثير التردد على هانوفر ، الأمر الذى أبهج كل من يعنيهم الأمر . ثم تشاجر كابيه مع أمير ويلز (ولى العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابيه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصرى ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - آنزباخ ، قد نشأت فى بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستنت، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الرومانى المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما حميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفية مخلصة له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف فى معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراما كفى لتركها تحكم انجلترة (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد التى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، وبعض لطائف فى السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وامرها أن تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى فى وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدءوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وادركوا آخر الأمر اى تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة صالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترة فى دهشة ان هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه ·

وكاد بلاطها يستحيل صالونا · فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليـدى مارى مونتاجيو · وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدرى · وانتشلت ابنة ملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل حلوال نزوات الجمهور والملك · وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه · وأيدت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم · وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبيـة المتشـككين فى الخلود(٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء(٢٣) · قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى ·· انهـا فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » ·

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسي الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها · وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها · وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، ساتخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ار قط امراة تستحق ان تربط حذاءها (٢٦) » · وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتـح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها ·

٣ ـ روبرت ولبـول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من ان يعطى انجلترة عشرين عاما من الرخاء والسلام · ولم يكن ولبول « بالولىّ » او القديس ، ولعله كان افسد وزير عرفته انجلترة فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففى ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد ٠

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء فى أسرة نورفوكية عريقة ، وفى ايتن التى زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته ٠ ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء فى التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة ٠ وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا فى حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية ٠ وفى ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به فى برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبلدا فى الأنوف ثم يلبث أن أفرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥)٠ وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة فى ١٧١٧ ٠ وفى ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترة الى حالة الاستقرار المالى ٠ فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترة ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه (٢٧) ٠ وكافأ المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة ٠

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة ٠ ذلك أن الملك الجديد كان قد اقسم ليكونن خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة ٠ ولكن سرعان ما اظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به ٠ فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حجتها بوعده الملك والملكة براتب اكبر ٠ وقبل السير سبنسر لقب الأيرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه ٠ وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى الفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روءساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تانق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لانه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكد ويكدح اذا دعاه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه آثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

أما الأخلاق فلم يكد يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم أن تطلبوه باسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضي هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكترث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجد المناصب السياسية المجزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباه . وانفق

٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون ، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠ر٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشترى اعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش ، وهنرى الرابع ليسكت الاعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الحجج الأكثر لينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحيم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والاصوات ومحررى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠ر٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتالف من الملك ، ورئيس آكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشرّ نائما . واذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بانه لم يكن محبا للثار ولا حقودا ، وانه كان أجدر بالثقة ، لا بل اكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجلترة فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الأعيان ملاك الأرض وطبقة

ورجال الاعمال . فحاول ان يخفض الضرائب على الارض ، وايد العقوبات الصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب فى الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الارض فى القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة فى المدن ؛ والظاهر انه أحس ان سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . واذا استثنينا تلك المنح والرسوم فانه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سمث بزمن طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير فى سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وازال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الامريكية ، وكان رأيه ان الاقتصاد الانجليزى يزكو فى ظل اقل القليل من التشريع الحكومى . وقد برر الزمن رأيه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت ايرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة انجبته البلاد (٣٤) » .

على ان مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بافدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربى التبغ والنبيذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات باكثر من نصيبها فى الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهى شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت او بيعت فى انجلترة . وخول لموظفى الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا اى بيت فى اى وقت ، وكان الاشخاص الذين يتضح انهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة او السجن . وهب الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ او النبيذ او تهريبهما او بيعهما او استهلاكهما . وندد خصوم ولبول فى مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد اخبر اعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون بأسا فى أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الاكبر — أو لعلهم املوا ان يحلوا محله فى الاشراف على

المال العام . وراجت النشرات من آلاف النسخ ، تسب الوزير بلغـــة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمنستر هول ، وأحرقوا دمى تصور ولبول فى عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الامة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الأسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هـــذه اللحظـة أضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ ـ بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليـــل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلى Bonnie Prince Charlie " و « شلة » اخــــرى راحت ترقص حـــول فردريك لويس ، امير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير ـ سويفت ، وبوب ، وفيلدنج ، وآربثنوت ، وطومسن، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضـــحوا أخـــلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن . اما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء واثاروا ثائرة البرلمان فى عزمهـم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبت الصاعد ، باصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترة واستعادة أملاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففى بيته بلنـــدن التقت صفوة انجلترة ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفى بيته الريفى ، راح يتراشق بالسخريات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

بوب ، وبالاغانى الشعبية مع جاى ؛ وهناك ناضـــل ليوحـــد بين المحافظين الجياع وبين الاحرار الذين لم يظفروا بما يشـــبعهم من الرضا ، فى معارضة متكتلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة ـ سميت اولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم «الفنان» ـ راحت تكيل اللطمات ، اسبوعا بعد اسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو اراد أن يصنعه. وكتب بولنبروك بقلمه اشد المقالات اذى ، وهى أروع نثر سياسي شـــهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ ـ ٣٤) « رسالة فى الاحزاب » ـ الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن اعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قراتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان ادبه الجم (وهـــو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشـــيئته او عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك اســـتقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراســة التـــاريخ وفائدته » (الذى الفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بانه معمل هائل اجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال ... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التـــاريخ (٣٧) » . وينبغى « ان نعكف عليه بروح فلسفية » والا يقتصر همنا على فهم الاســـباب والآثار والنتائج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن انها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قليلا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء .. ولقـــد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بآخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جـــديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتيني وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبنى عوالم جديدة ، ولا ... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترة فى ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان المقال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنروبك أن انجلترة قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يقبض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على انها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحريات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليد المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تاثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادىء الأحرار ويتالف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الاحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التى احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتطهر حكومة انجلترة . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الأب والابن . وأوحى بالمحافظـــة اللبرالية التى دان بها بنيامين دزرايلى ، الذى اشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزى » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذى أرسي باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الأساس لعودة المحافظين الى الحـكم (٤٤) » . لقـــد كان تاثير بولنبروك ودزرايلى هو الذى صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منـــه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترة اليوم .

٥ ـ كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التى اتسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى ـ الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادىء مماثلة ـ على الاحتفـــاظ أطول ما يستطاع بالسلام الذى ارسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء أوراتيو . ولكن احتفاظ انجلترة بجبل طارق ، وتنافس انجلترة وأسبانيا على الســـيطرة على امريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضي الزمـن . وكان جـورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك اسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترة ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضي هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترة الى الحرب ، فهى تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » ذلك الامتياز الذى منحته اسبانيا لانجلترة ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الأســـبانية فى الدنيـــا

الجديدة ، وأن « تجـارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدير الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه فى أحد هذه التفاتيش (٧٣١) فقد احدى أذنيـه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليـا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجـارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجـار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . وأثارت ثائرة الشـعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الامر يشاد بهم وطنيين بواسل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه فى زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بلتنى ، وبت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترة★ . وفى لحن عسكرى معـارض نددت جماهير الشـعب الاسـبانى بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا اكره اسبانيا نبيلا على جدع انفه وأكله .

اما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقـولا . فنشر لاكوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطابا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه اخبره سرا بان أسبانيا ترحب بتسـوية النزاع بعـد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية — فى تحد لهذه الصـورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له أذنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذنى جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى صلم الأذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) .

الجماهيرية الصاخبة ـ اتفاقية الباردو مع أسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩) وفيها نزل كل من الجانبين عن اشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسبانى المعاهدة ، ولكن انجلترة باكملها تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة ستنتقض من دخلها وارباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى بمدريد وكيلا للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الأزينتـــو » الذى سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترة بامداد أمريكا الأســـبانية بالعبيـــد الزنوج انتهى أجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم الغى الامر بعد أن اشتبه خطا فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب، التى أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترة الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذى كان لا يزال ينعت ولبول بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرع فى انجلترة طولا وعرضا . وكتب الآن جيمس طومسن اغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا » التى اقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ، فعندها تكمم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول كانت استثناء للقاعدة . فلقد احس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة للجيوش الزاحفة أو للاساطيل التى تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارتة تبعة الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان احد أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ اقترح صموئيل ســـانديز عـــلى البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه لم يهزم الا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وافسح له فى الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب أبنه يقول « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة .. لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذى كان على المائدة ينسي دائما أنه وزير ، وكان اكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) » . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب ايرل أكسفورد ، وبوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات ، وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترة السلام ، وانطلقت لتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ ـ ارلنده : ١٧١٤ ـ ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شرّعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيهم معاملة العبيد . يقول تشسترفيلد « ان الفقراء فى ارلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى ارلنده أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترة ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستاجرون الارلنديون(٥٣) . أما المستاجرون ـ الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمقتونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم ـ فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الإحايين ، وذهب سويفت الى ان « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما المـلاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعيضون على همجية بيئتهم وعدائها بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمبارزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطانى مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق أي صناعة تنافس انجلترة . وقد رأينا فى غير هذا الموضع كيف قضى قانون صدر فى ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى اى بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت الصادرات الارلنـدية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترة(٥٥)، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترة، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترة لماشية ارلندة او اغنامها او خنازيرها ، أو لحم البقر او الضان أو الخنزير ، حتى الزبد او الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمسـتعمرات الانجليزية ، فاشترط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربيـة للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترة ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويفت « ان مزايا الموانىء والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة، ليست اكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنزانة (٥٦) ».

وأرهقت القوانين التى شرعتهـا انجلترة لرعاياها الارلنـديين البروتستنت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضـموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا في العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز باصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المألوف ، فقد "منحت دوقة كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠,٠٠٠ جنيه ؛ ولكى يجمع وليم هذا المبلغ مضافا اليه ربحـه

اقترح أن يسك ٨٠٠ر١٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت حملة عملة ارلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٠٠٠ر٤٠٠ جنيه ، فقد احتج الارلنديون بانه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيهـــا ايجارات المـلاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ســتحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى ارلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٠٠٠ر٤٠ جنيه وقدمت تقريرا من اسحاق نيوتن ، مدير دار ســك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهـــود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان ســـويفت ، الناظـــر الأنجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روحه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الارلندى . وزعم أن العملة التى أرسلت الى نيوتن لاختبارها ســـكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من انصاف بنسات وود تساوى اقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بان قدروا أن ارلنده ستخسر ٤٨٠ر٦٠ جنيهـــا بالاصـــدار الذى اقترح اولا (٥٧) . وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوى للحـكم الانجليزى كله فى ارلنده ، ووضع هذا المبدأ « ان كل حـكم بغير رضى المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الارلنديون ، بما فيهم اغلبية البروتستنت لهذه النغمة الجريئة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع اغانى شعبية تحض على مقاومة انجلترة . ووجـدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر لمام قلم واحد ، وهى التى تحـدت شعبا باكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض عـلى الكاتب ، ولكن احدا لم يجرؤ على اتخاذ اجراء ضد الناظر العابس وان عرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ أى ارلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم ويلبول بالهزيمة ، والغى الاصدار ، وعوض

وود بمبلغ ٢٤٫٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى انفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنيان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستنت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترة . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترة ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلندة ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترة ، فلم يكن لها وجود فى ارلندة . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبيهما واعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك . واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسطا من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستنت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستنتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة واقسم يمين التخلى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت . اما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلندة ١٫٤٤٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ارلندة .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا او أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجرأة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة الاف الماشية والاغنام ، انتقاما كاثوليكيا ـ على ما يبدو ـ من الملاك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك ـ وهم ثلاثة أرباع السكان ـ بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندة والمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكانى فى ارلندة علماء أفذاذ (كالأسقف آشر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من أشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضوى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٫٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعـــا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار - « فالشيوخ والمرضي يموتون وينتنون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » - على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجـــد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصـــقيع الطـــويل القاسي الذى اصـــاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ - ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من الســـكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . ففى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٫٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٫٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن مـن فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينـــه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما سلبته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع ســـكان ارلندة من قـــرابة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحــــو ٢٫٣٧٠٫٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم ســـلاح الغـــزاة وجشعهم .

٧ - اسكتلندة : ١٧١٤ - ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا أشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترة . وكان أهل سهولها سلالة أنجلو - سكسونية ، ينتمون أساسا الى الأصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت،

في قبضة أهلها الشديدى المراس . وأما دينها ، شانه شان الانجليكانية ، فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتى ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعـد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان فى انتخاب البرلمان الذى أصبح الآن يسمى البرلمان البريطانى (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وإذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية فى اسكتلندة أن تنشيء مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد فى الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هـذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى» دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضي تحقيقه الكفـاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكله . فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتبـاعه المقطعين ، والأرض تفلحهـا طبقـة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم . ولكن الاتحاد السياسي مع انجلترة أخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئـة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفـوذ الأرض ؛ فتبنـوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصـحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدّون الزعامة القومية التى احتكرها الأرجيليون ، والأثوليون ، والهاملتونيون ، والماريون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السـلطة الاقطاعيـة الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اسـكتلندة الاقتصـادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحـاد المستعمرات الانجليزية للتجـارة الاسـكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجـار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ١٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى ١٫٦٥٢٫٠٠ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين الفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس — احيانا ميلين او ثلاثة — ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأهوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وقدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة ّمرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلندة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وأدان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان اتخذت احكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ أدينت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرّت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥) . فلما الغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تنفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة — من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكيبة من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشسن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نحّى الجدل الدجماطيقى ، وأرسي علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم ألوهيته ، لم يكن معادلا لله الآب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكوّنت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر بالالحاد فى تفاخر ؛ ولعلهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استثنينا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترة أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى مارى ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . واطلقت انجلترة على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهذبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفاتن الشباب،

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارع طوله ستة اقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق — وقال الدوق ان هذا « على الجملة اكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفى ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب فى الجيش الاسبانى فى جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على انجلترة . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطانى ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضي الى حرب الوراثة النمساوية . وارسلت انجلترة جيشها الرئيسي الى القارة ، فاى وقت انسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة اخرى للظفر بالعرش الانجليزى ؟ ومن ثم كونوا فى سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التى التزمت بتلك المغامرة ، واوفدوا المبعوثين الى انجلترة ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وارسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وامر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية واحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع فى برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل تحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى انجلترة . وانتظر الأمير تشارلز فى ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما فى ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتى ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى آنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . اما ابوه المسن فظل فى روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وامده بمعونة مالية معتدلة . فمضي الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافد الأوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذى انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافد .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترة كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضي حين وصل نبأ بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، واصيب الباقى بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبأ المثبط وصل فرنسا نبأ بأن الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل فى معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . وأخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترة ، التى لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ فى باريس متنكرا ، واقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترة ولو اضطر الى الذهاب وحيدا فى زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع « الذى قد ينتهى بدمارك ودمار كل من يشاركونك فيه (٧٠)». وفى أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهدنى فى الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

وأخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون فى منعه من المجىء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثانى ، محتذين فى ذلك حذو بولنبروك. ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠ر٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتى تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو فى الأخرى شمالا الى غربى انجلترة ، وفى ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، فى جزر الهبريد الخارجة . ونصحه زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « انني فى وطني » . وأنذر بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافاة تبلغ ٣٠ر٠٠٠ جنيه لمن يأتى به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى أقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة • وفى ١٩ اغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل انصار أسرته ليعينوه •

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم اتباع له ليشوا به ، وأعلن ستة أشراف انضمامهم اليه ، وكان الف ومائتان من بين رجاله الالفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون • وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب • وفى ١٧ سبتمبر دخل ادنبره ، واستولى على الحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والاول أمه • وكان مظهر الامير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا ياخذ بالالباب فى بزة أهل المرتفعات ، بسراويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء • وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلّت كل النساء من اجله وهفت قلوبهن اليه • وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نمى اليه نبأ اقتراب كوب من ادنبره فى الفين من جنوده • وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسري كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدا أنه قد ظفر باسكتلنده •

وامر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر اخرى اليه • وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا • وفى ٨ نوفمبر عبر الامير السعيد الحدود راجلا الى انجلتره على رأس ٤٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثا الى داربى ، آملا بتقدمه المثير ان يحمل انجلتره على استقباله ملكا شرعيا لها • وأذاع منشورا تعهد فيه بانه لن يصيب الانجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكى الرومانى ، اذى اكثر مما اصابهم على يد جورج الاول اللوثرى (٧٢) • غير ان انجلترة لم تصدقه ، وكرهت ان تعاود من جديد ذلك الصراع المضنى الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم •

ومع أن أحدا فى انجلترة لم يكد يهب ليقاوم تشارلز ، فان حفنة من الجند الانجليز فقط هى التى خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائدا من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بآلافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيدا من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذعن تشارلز ، وقاد التقهقر الأليم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلنده ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزا من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٫٨٠٠ مقاتل شمالا مخترقا مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد أن فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تأخذه بهم رحمة » . فكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل(٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئيلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتمردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد التمرد . وظل دعاة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما .

ذلك معاهدة اكس — لا — شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترة وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية . ولكنه رفض الرحيل ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وأن يعد بالتخلى عن المذهب الكاثوليكى (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردّى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجوالة بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » ٠

٩ ـ صعود وليم بت : ١٧٠٨ ـ ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترة الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضي سياسية وحروب غير حاسمة ٠ فحكم اللورد ولمنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ ـ ٤٣) في أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) ٠ كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترة مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال الهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده ٠ وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ ـ ٥٤) انجلترة الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان ٠ وحدّد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترة ، ضمّنها ـ لدواعى الموازنة ـ جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى ماثرة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ ٠

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند ٠ وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب ٠ فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة في منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا ٠ وقد غرم ١٫٠٠٠ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المـــال ما مكنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين الفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكنه من بيعها لفليب اورليـــان ، الوصى على عـرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظه الآن - بعد ان ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متألقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاســبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . واوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر أبنائه الذى تزوج هاربيت فليبــه ، التى انجبت له سبعة اطفال ، كان وليم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو فى ايتن ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه .. وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاناته من النقرس وهو فى الثامنة عشرة . واذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون ان يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حمـــله طـــوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له اسرته اصوات دائرة أولد ساروم، رغم نها تركته فى فقر نسبى باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هنـــاك ، لانه كان ابلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبـه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، واخيرا اعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الاهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقدح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماءته ، وكانت كل عاطفة تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيـه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل أجتنب خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريح التى تدفع فى قلوعه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسـه بانتظامه انجلترة بأسرها ، وأفنى نفسه بجِرِّه انجلترة ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذ شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حَلْقِى هانوفرى ، أو أى رشـا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخُلُقى ـ وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فان ذلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف ليُفسر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلِغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه ـ الذى كان نجاحا لانجلترة ـ القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجـد والفخـار . وكان فى كبريائه شيء جليل ؛ فقد كان يحتقـر شراء الترقى بالتذلل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبـانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى ـ فى رأى بت ـ « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترة غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدة حملت دوقة ملبره وهى على فراش الموت سـنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بانه « اكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وامين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، واذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقـــلده ، فالخازن ياخذ لنفسه نصفا فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للامراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة ـ التى يحتفظ بها لنفسه ـ الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وابى بت أن ياخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى ان يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهـــدية . وصفقت انجلترة لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، واصغت فى شوق الى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الراس فوق العالم بامره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترة معاهدة مع بروسيا . وفى مايو ابرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترة وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ ـ الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترة الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هـــذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسي سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ ـ ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك. أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا ـ وبعضها أخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه ـ قبل أن يحضر الى انجلترة ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترة (١٧٢٦ ـ ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مســتضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله ـ وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الىّ على أننى مقـــلّ فى الدين ، وفى انجلـترة على أننى مسرف فيـــه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلتره فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترة دين(٢)»· وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وسلى يؤسسان الحركة المثودية فى اكسفورد · ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين اقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » · وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين علية القوم :

« ان خرافة المسيحيه هذه ··· قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلتره ، حتى ليكاد اى رجل عصرى او ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين · وحتى النساء اللائى كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس ان الميول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » ·

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعما قليل سيعرف الدكتور جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » ـ وبالمعنى الحرفى « الله فى باطن الانسان » · وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الان للدولة ، وغدا قساوستها اتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة · وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص القس ادمز · وغلبت الفوارق الطبقية فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخره ، فاذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) · وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتمسين هواء أكثر نقاء ·

وكان بعض الأساقفة الانجليكان أمثال بطلر ، وباركلى ، وواربرتون، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الاكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفننون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ر جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كنتربرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٠٠٠ر جنيه (٧) . ولم يكن ثكرى يطيقهم ، فقال :

« قرات أن الليدى يارموث (خليلة جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٥٠٠٠ر جنيه ... أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثاءب تحت مظلته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية ... بصوت يبلغ من علوه أن القسيس ... انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس ارمنيوسي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفن واعتناق تعليم المهرطق الهولندى أرمينيوس القائل بحرية الارادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم ، كانت تروع انجلترة القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترة بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بأمور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون. فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكى الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكى عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال أبنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها الا للمواطنين الذين اقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترة رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكى يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكى يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترة والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الأول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستنت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزبتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعا فى صمت بمسيح بشرى(١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . وأما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلا لأساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائد فوق أرض عطلت من الابسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويصلون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجمهورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولتير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترة الكثير مما يمنح درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ... هناك يُجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكأنهم من دين واحد ، ولا ينعتون بالكفر غير المفلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكانى على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمّد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده وبتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمضون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحى وقبعاتهم على رءوسهم ؛ والكل راضون .

« ولو أن انجلترة لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان لتقاتلا لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ اما والأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا يعيشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ ـ التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترة : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والالمام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و ـ تلخيصا لكثير من هذه العوامل ـ حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدات بكتاب « الحقيقة » لهربرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها باثر متراكم فى اعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك . وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذا « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لاعرابه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن اريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، واجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما اقلع المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا الوهية المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، اطلق توماس وولستن سورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ ـ ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراة (١٦) » . وقد زعم وولستن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد ان مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدريين ؛ انهم كانو « يستصدرون حكما باعدامه شنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جناية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتاكيدات زعم فيها انه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك اهدى كل حديث الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وقدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقى ، وافرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الأحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيرة لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ... أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فاجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . فقولى لى من فضلك بم أسأت اليك» ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسي الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصى الذى مات من أجل الخطاة الأشرار مثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذرونها فى ماثيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان اهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فأتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطلر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلى « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرا على أقلية من الجنس البشرى . فأى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الالة الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هـذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى اكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ـ بل جعلهم فى الواقع أشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحى الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان الممنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « فكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى اقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعادته) ـ له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الاشياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضيلة الحقة ، تلك هى المسيحية الحقة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للايمان السنى ، واصل الممارسات الخارجيـة للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من افضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سـيرة رائعـة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترة « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التى بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية ـ البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرابين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأحبار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أحبار روما Pontiff . وصفقت انجلترة البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكى سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من اثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا اصدر مدلتن اهم اعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم انها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) ـ وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهدائها بعد القرن الميلادى الأول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم واقدس لاهوتيى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . فقد فاته انه هو أيضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطانى » ، او كسماع القديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على أى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلّط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبقها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقين تماما حين زعموا أن حججه من شانها اضعاف كل الأساس الاعجازى للايمان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقساته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الأرستقراطية . ففى كتاباته التى حبسها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب افلاطون بابى الكذب اللاهوتى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » وليبنتز « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين مثقفين » ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسخر من العهد القديم لأنه خليط من الهراء والأكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما أن نكون غير مؤمنين ... ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى أن نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره باخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسي ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض والياس • وهجره أصحابه القدامى لانهيار نفوذه السياسي وحدة طبعه • وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية • وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فاملى وصية تتسم بالتقوى ، ولكنه رفض ان يسمح لأى قسيس بالاهتمام بروحه (٢٩) • ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للبشر • لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بهـــا النفس العصرية •

٣ ــ الدفــع الدينى

اما المدافعون عن المسيحية فلم يقــابلوا الهجـــوم الربوبى باى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجــوم بكل ما أوتى تندال أو مدلتن أو بولنبروك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، واسلوب مقذع • واعتمد المدافعون الأضعف شانا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى ان اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجىء « المسيا » حين أتى المسيح ، وان كثيرا من النبوءات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا ــ كمــا فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر ــ الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح • وركز شرلوك وغيره على أن الادلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم الوهية المسيح والمسيحية • وقال شرلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صـــدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين ان يؤمنوا بحقيقة الثلج • فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهــوى لا على العقل (٣٠) » • وليس فى امكاننا التاكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها • فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على انها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور !

اما جورج باركلى ، الذى ترك بصمته على الفلسفة فى السنوات ١٧٠٩ ـ ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جـــزيرة رود بكتـــابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حـــوار يتالق بالتفكير الجرىء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفســه بانه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحــكام على الناس ؛ وهو يابى الايمان باى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلى) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحدين الأفاضل ، ولكن الا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضــا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء ـ كما هى الحال فى الرياضة العليا ـ تتجاوز تماما شـــهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى ان عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسي ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلى الصماء . فبعـــد أن "درّب لممارسة المحاماة ، ورّسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وســــط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعــله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فقد كان يســـتطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بانها « حــرب على الأرض ، أى على المتعصـــبين والمنحلين ، الذين اعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا اخطات الخصـــوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه باوصاف محكمـــة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان اقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر مالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضـخمة ذات المجـلدين فى ١٧٣٧ — ٤١ بعنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقـا لمبـادىء ربوبى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالايمان بحالة مستقبله من الثـواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغهـا حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وربرتن أن هذا الايضـاح « قريب كل القـرب من اليقـين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خـلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملأ صفحاته ببحوث علمية — عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصـل الكتـابة ، وعن معنى الرمـوز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن أخطاء أحرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين والأتراك ، واليهود — حتى لقد ذهلت انجلترة باسرها لثقل علمـه واتساع مداه . وتقدم وربرتن من معركة الى معركة — ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم — حتى بلغ اسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان الين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذيبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حزّ فى نفسـه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوربية من الهمجية ، يواجـه امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رآسه أسقفية كنتربرى — وهى اعلى منصب كنسى فى انجلترة — رفضها معتذرا بان قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عـن فزعه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الامة .. فتاثيره يبلى أكثر فاكثر فى أذهان الناس ... وعدد الذين يجهرون بالكفـر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تكر » بسؤاله : الا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكـــرة الروحى اذا تخلى عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمـــــان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظة » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطـــرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الأسمى فى كيان الانسان تدين باصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصدا الهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قـــرن أهم حصـــن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشـــبه بين الـــدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا ادرى كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لأنه قد تبين آخر الأمر انها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكأن هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبق الا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهـــم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ قصد بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فانه افترض وجود الله . [illegible] الدين الطبيعى » الذى يدين به الربوبيون يقبل « اله الطبيعة » ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الاله الذى صوره الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صوره العهد القديم ؛ وأنه لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحى ، وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغى منطقيا أن يقبلوا الآخر • ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبده المتحضرون •

واقام بطلر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال • فقال ان عقولنا ناقصة ، وانها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود • وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن اعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها • والنفس ، التى من الواضح انها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، واغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى • وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى ــ كتغير الكائنات الزاحفة مثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد الوان من الثواب والعقاب ــ مع الافتراض دائما بأن الله موجود • فكما اننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة اكثر انصافا بين السلوك والمصير • وضميرنا ، حسنا الخلقى ، لا يمكن أن يكون قد جاءنا الا من لدن اله عادل •

واكثر ما لحجج بطلر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه أنها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى • ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها موجهة أصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القاسي المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطلر لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء اشد دفعا الى اليأس من الكفر — الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطلر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الأمام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا انهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه افضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطلر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطلر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وآثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب هنرى دودويل « المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، واقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة ترتعش فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائعة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبطلر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى اكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تفنيد الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطنيا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

اما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكلبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبته الفادية بحرارة وثقة كانه توماس أكمبيس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحّى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يامر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصح من تلك التى تتوه فى روءى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجدّدة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن اشخاصا من الجنسين ... تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والتبتل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم ... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام باى ميل للخرافة أو تعبّد أعمى ... بل يمكن ان يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد اثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمة جيبون

هستر جيبون ، تاثيرا حملها هى وأرملة غنية على الذهـــاب للعيش بقربه فى مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكرستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه • وقد وجد هذا الرجل ســـعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظات على الفقراء والمرضي والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوفا بالبحث ، محبا للصـــحبة المثقفة المهذبة • وغالى فى تقشفه ، فانكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، وجدد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » • ولم يكن الخـــلق الانجليزى ، ولا مـــزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكـــر عقيم ، واذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه •

٤ — جون وسلى : ١٧٠٣ — ٩١

اذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ وجب أن نذكر أنفسنا ثانيـــة بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحـــركة المثـــودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترة أحط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث • فلم يكن يختلف الى الكنيســـة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) • وكان رجـــال الاكليروس الأنجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى • وندر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيـــات • والعظـــة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة احيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماءة ودون أن يرفع صـــوته رفعـــا ملحوظا(٤٣) » • ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى • وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليـــا تقريبا من الاكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتالف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن متناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا دينا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا • فى هذه الخلفية أحيا جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية احياء قويا وأسسا الكنيسة المثودية •

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلى . فجده الأكبر يرتلميو وستلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه واصل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنسي فى انجلترة للكنيسة الانجليكانية. وأصبح جد جون ، جون وستلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . واسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا أنجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم ـ وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهترة ، ونوعية الطب فى انجلترة القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ ابناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هـذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينيـة ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما اصبح في الامكان أن يحكم الطفل بعقل ابويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على انفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) ».

واصبح أكبر ابنائها ، صموئيل وسلى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا انكر على أخويه مذهبهما المثودى . وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٫٥٠٠ • أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ • فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فانقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم • وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى •

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد • وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمرّ حتى بلغ الثامنة والثمانين • وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية • وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » • وبدأ — حتى فى أيام دراسته بالكلية — تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية • وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال • وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا •

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية • وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » • وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضي ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة • ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسته وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة — وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا برء منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوجلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسا مشورة أمهما . فقالت لهمـا « لو كان لى عشرون ولدا لأبهجنى أن يدّعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى انى لنا نحن المجردين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وارجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندز » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحة التى آنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين اثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، واحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانهما قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذا منصبين مختلفين ، فاصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوجلثورب ، وجون راعيا للجالية الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . واثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراءون ، كذابون ، قتلة لآبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الاكسفوردية وروحه الآمرة الناهية واصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففى العماد اشترط التغيطس الكامل ثلاث مرات ، فاذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل. واذ كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فانه اقصى عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بانه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلى الذهبية ، واقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الاحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، وأنها اهملت ان تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوك وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عداء الشعب له ، ففر الى تشارلزتن واستقل سفينة الى انجلترة (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استانف تقشفاته أملا فى أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا موارافيا فى طريقه الى أمريكا ، اكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وانه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حارتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الابدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشراق واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن اى عملية استدلال عقلى - أن المسيح قد مات لاجله هو ، وأنه كفر عن خطاياه هو ! فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعيــة فى شــارع أولدرزجيت ، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية ٠ وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصــف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبى يدفأ على نحو عجيب ٠ شعرت باننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تاكيدا بانه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت ٠ وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم ٠ ثم شهدت علانية لجميــع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » ٠

ويمكن القول بايجاز انه لخص تطور المسيحية من الخـــلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمــان وحــده (لوثر) ، الى الخلاص باشراق شخصي والهى (الكويكرز) ٠ وعبر وسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وانفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى انشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزندورف ٠

وكان تشارلز وسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترة ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبزها قوة غير شخصية جون وسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة المثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد ٠ وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ ٠ وعمل سنة أو أكثر ساقى خمـر لضـــيوف أبيه ٠ ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعيـــل الأول فى « النادى المقدس » ٠ وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترة فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا أنجليكانيا ٠ ولذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المنابر ، تواقا لأن يبث الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخـــلاء

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين ألف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأثارت خيال انجلترة سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أينما ذهب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشيء الذى ينسي . فهو لم يدع لنفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول وسلى ان لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وانه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك انه كان يقول عن المسيح انه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بانه حمل الله (٥٤) » . وكما فعل بت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقول ، اذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطباء أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقى الترحيب أينما حل ، فانه جعل انجلترة ، وويلز ، واسكتلندة ، وارلندة ، وأمريكا ، أبرشيته . فعبر المحيط الى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندة اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الاسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - أى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيوبريبورت بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون وسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الأقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جـــدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، ... فقد كان المفروض أن ارى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالته الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بان أكون أكثر نزولا الى العـــامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته اقل حرارة من خطـــابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنتلمان ، ولكنه هو أيضـــا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياه اليومية لبسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى وسلى) ـ كما زعم ـ صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح وسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنها المسحيون الأولون ـ أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضـــهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل التراتيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض التراتيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة تراتيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » ـ دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محـــددة ، بمنبر أو بغير منبر ـ فى أرجـــاء انجلترة ، واســـكتلندة ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهـــوت البروتستنتى للطبقات العـــاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها وسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر ـ الى أقصي أركان انجلترة راكبا جوادا او مركبة أو راجلا ـ وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه أربعة آلاف ميل فى السنة على مدى أربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ارلندة أو من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منع من الوقـــوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية أساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضي الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الأرمنيوسي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحى الالهى والاقتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للأصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلى عن الايمان بوجود السحر معنـــاه التخلى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداع ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلمـــا قرأت كتاب القداس الكاثوليكى ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعمن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى عوقب فيها خصوم المثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضي بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧). وبصف وسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين .. وساء كويكريا واقفا يتفرج ... أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذه بالحماقة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبى من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون ... وأكثر ما سمع كان شهيقا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات ... ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الارض فى عنف لا يتصوره الانسان .. وسمعت خبط اقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد ... وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود .. وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور .. ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! « وبينما كان يتكلم حرّر الله روحه ، فعلم أن خطاياه مُحيت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المثودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تتويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها احيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المثودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشروا بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا. لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى او الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انشاها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانيه انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الاشداء والنساء الصبورات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا مخورا بالاختيار سندها فى الفقر وجعلها عدوا لأى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وباهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقى للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ؛ وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الأنجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الأساقفة الرسوليين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الاكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وسلى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تاييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآثروا تطورا منظما ، وأقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية اقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطيقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . ففى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق ـ كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد ـ من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . ففى مونموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمع بيوت المثوديين ، وآذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وسلى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز وسلى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

أتباعه . وفى اكستر رُجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سِيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، وأكسبتهم التسامح والتأييد .

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينيه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده انه خلق ليَحكُم ؛ ووضعه نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوّى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف ألوانه ... ولم نكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ،ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل انه يموت من أثر الوقار الانجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدوّيا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب . فلما مات وسلى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩٫٠٠٠ فى انجلترة ، ٤٠٫٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢٫٢٥٠٫٠٠٠٠ مثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فى العالم (٦٥) . وفضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت المثودية ، اذ بعثت المثل المثودية العليا الحركة « الانجيلية» فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حـركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقـات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان المثودية حسنت السلوك الشخصي والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيأت لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسـة ، ولكنهـا واصلت العـداء البيورتانى للفن . واما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفـة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقـل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسـا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وسلى السادسة والثمانين ، كتب فى يوميته يقول « بت" الآن شيخا متهدما من رأسي الى قدمى . عينـاى معتمتان ، ويمناى تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفف من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شـهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترة واسكتلندة. وقضي نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الافراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه ـ باستثناء بت ـ كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ ـ فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفاننا فى طريقنا الى ديفد هيوم • أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتذمرة » • وموضوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل ـ الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية • وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبيث الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة • فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة ـ لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم • لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضي ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد •

وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد اصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين • وأصغت انجلترة وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية •

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف • ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطأ ... فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شرير » (متمرد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ، هناهم على الملاءمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله عدنا همجا . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظاتنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها ـ لأنها تروق غرور الانسان وخوفه وكبرياءه ، ـ على ان نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرأيه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقته هذه ، « الرذائل الخاصة هى فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بألفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشاغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » فى الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست فى المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن فى ارلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمه عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البرىء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرءوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وأيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكان دار القضاء هى المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة ... وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مالوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضي فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة » .

ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

أ - الفيلسوف الشاب

كان هتشسن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بادنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أبا وأما ، فاسرة أبى فرع من ايرل Home أو Hume★ وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلّف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل .. .. فاسمح لى بان أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكر فيه ولا يعييني الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضربا من جراة الطبع يتملكنى ، وهى جراة لا تميل الى الخضوع لأى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) ... فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كانه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن انبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر باى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

وألح عليه اقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها فى العام لن يتيحا له سوى عيش ضنك ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (١٧٢٦ — ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . ففى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لابذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) ، واعترفت بانها حبلى . فلما جىء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بان « المستر ديفد هيوم ... هو أبو الطفل » وارتاب المجلس فى صدقها فاحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها أن تقول الصدق وتعترف هل أذنب معها شخص آخر ... وبعد أن نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امتثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أدينت آجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضي هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض علىّ شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترة . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبّر اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه .... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترة مثقلا بمخطوطته . وقد لقى عنتا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من ايذائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاها لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقى ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبثين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنتى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدّر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسي ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسي ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وامكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسي احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسي (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لأى فكرة ... انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية ـ الاحساس ، أو الادراك الحسي ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه « الذهن » ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها ـ وان كان الفرض خطأ ـ أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ... أما أنا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه « نفسي » أعثر دائما على ادراك حسي معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان الحظ شيئا غير الادراك الحسي . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس « بنفسي » ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم ... واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيريقيين .. فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما ... وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ... تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما أثبت باركلى) لا ندرك « المادة » أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية، لأننا لا ندرك أبدا « روحا » ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك « ذهن » يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا « المادة » ولا « الذهن » موجودان . لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن « يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ، لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية يقرره ترتيب الأحاسيس ، وترابط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان « الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس فى قدرتنا أن نثبت أنها واقع موضوعى . فاذا أدركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه هو تعاقب الأحداث ، لا عملية علية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالاتنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى نتحدث عنها الا تعاقبات مالوفه فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم للاحتمالات المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب » الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الأحاسيس ، ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبنى ايماننا بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسطة الارسطاطالية . ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل ثقتى بآرائى عنها حين أتأمل الاشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) » فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع او بناء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا • ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الأحاسيس ، وعلاقة علية وراء التعاقبات المتصلة • وهو ثابت على موقفـــه نظـــريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » • ولكنه يعترف فى لطف أنه، عمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه •

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هــذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية ••• لأجبت ••• اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبـــات (٨٨) ••• اننى أتناول غذائى ، والعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسي ما يدفعنى لمزيد من الايغال فيها (٨٩) ••• وهكذا يواصل الشـــاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وان أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وان عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » •

واخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلانى تتخلله العلية • وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١)» فانه — وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره — يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة • ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى المعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له •

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقى على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، ساحاول أن أثبت أولا أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لأى فعل من افعال الارادة ؛ ثانيا أنه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبثين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف ـ وأهمها الحب ، والكره*، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تُحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤)». وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، والى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيأ لاعطاء اللذة والرضي للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اضفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكوّنان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هيوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقليبها . قــال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية» فلقد ولدت ميته من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكت كلها تقريبا من أنه عسـير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال ناقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارىء أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته .. فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بآرائه ... وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هيوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضـيلة العقلانيين بقــدر ما ســاء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هيــوم القول « لأن العقل ليس له تاثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شـعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بهـا نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حــالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بانهمـا اجتماعيــان » ؛ و « الحــالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذ كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلمــوا أن يمتدحوا التصرفات

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التى سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الاحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بانه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث اقل لفتا للانظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعش هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج ـ الأخلاق والمعجزات

كان واضحا انه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الاستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك انه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (ابريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركيز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركيز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم انهم يتوقعون منه ان يكون حارسا لمجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (ابريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ ـ ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضي راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا فى بعثة الى تورين ، واكتسي ديفد الآن سترة قرمزية متوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان يومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمنته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف عن أقل اثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه التى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بان توحى للناظر بفكرة العمدة أكل الترسة ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتيسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكى . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كأى نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعتزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادىء الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما باسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداده المعادى بنفسه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة ... اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها ... فاذا أنبانى انسان بانه رأى ميتا يبعث ، سالت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احداهما ... أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريبه فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر ..

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدلالاتنا العقلية هو أن الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا ان نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية .. وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنهـا تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبدا فى أيامنا . ولكن لا غرابة ... فى أن يكذب الناس فى جميع العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم فى ادعاء عقبات أخرى فى طريق الايمان المسيحى: حياد الطبيعة الهادىء ازاء الانسان ومنافسيه على الأرض ؛ وتنوع الشرور المتكاثر فى الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم ، وعن جميع الخطايا ، فى عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء ــ طبقا للفرض المسيحى ــ الا برضي الله . ودرءا لتهمة الكفر عنه، أجرى هيوم على لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبدا الموافقة» على مبادئه ، دفاعا عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على الا يزعج أحدهما الآخر كما اتفقا ــ فيما يظن ــ فى الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزع الأول الذى نجم عن مفارقات ومبادىء الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة فى انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثانى جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفى ١٧٤٩ عاد هيوم الى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته فى ضيعتهما بناينويلز . وبعد عامين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد الى ادنبره ، وأرسل الى المطبعة الآن « التحقيق فى مبادىء الأخلاق » الذى أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقى مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب اليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكارا قاطعا فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانيا بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعى الذى يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التى نستشعرها فى مثل هذه الافعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لمبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشسن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانية وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة او لذيذة للشخص نفسه أو لغيره(١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضي تضافر الوالدين للابقاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى .. والخيانة من هذا النوع اشد أذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادىء الأخلاق يقول : « فى رأيى (أنا الذى ينبغى الا اكون حكما فى هذا الموضوع) انه من بين جميع مؤلفاتى .. .. افضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د ـ الداروينية والمسيحية

وفى ١٧٥١ الف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو اشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا انه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الهه غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢)٠ ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ، ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة ٠ أما فيلو فيسخر من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت وجود الله ٠ « فاى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه التى نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون كله ؟ (١١٣) » ٠ وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) ٠ (هنا نجد « الانتخاب الطبيعى » بعد ١٫٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من داروين) ٠ وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور التكييفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف لنا — على أحسن الفروض — عن اله محدود القدرات والذكاء ، أو اله غير مكترث للبشر بتاتا ٠ « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها غاية فى الخشونة ٠ فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحة ، ولكن ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة وما أكثر ما تكون مسرفة ! ٠٠٠ ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب المرة بعد المرة مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع الوان الخلل أو الفوضي (١١٦) » ٠

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام (اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة الزاخرة صراعا عقيما على الدوام مع الموت ٠

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية . فالضرورة ، والجوع ، والعوز ـ تحفز الاقوياء والشجعان ، والخوف ، والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء كل مرحلة من مراحل تلك الحياة ، ثم يختتم آخر الامر بالعذاب والرعب .. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى .. .. تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله ... فكل حيوان يحدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف، والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغـدر ، والتزييف ؛ بهذه يعـذب الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطة . يا لها من وفرة هائلة فى الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات الحية ... ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! ... والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهون المجهضون (١١٨)».

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العـالم الى فيلو بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيـار » وبعضـهم « أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لاله طفل أقلع عنها بعد ذلك خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى اله طعن فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعـة والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غــزل خيوطه المعقدة كلها من امعائه ... فلم لا يغزل نسق منظم من البطن كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا . أو ربمــا « كان العــالم حيــوانا والاله روح العــالم التى تحــركه وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاح كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام أو علله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » . ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى اقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى منى فى أى موضوع آخر ... وانك على الأخص يا كليانثيس ، أنت الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحــرر حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه باحساس بالدين أعمق من احساسي ، أو من يعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلهــا التى لا يمــكن تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب الفلسفية السخيفة تجمدا يجعــله يرفض هــذا القصــد على طــول الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه الا ينشر الحوارات رغم هذا العرض بالمصالحة . فاذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتانه بالدين أغراه بالعودة الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاح ناشره ، وقد طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ واحد المقــالين عــن الخلود ، والآخر تبرير للانتحــار حين يصــبح الشــخص عبئا على اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هيوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ • فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها • ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة باتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى • فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فوراء أعمال الطبيعة وأشكالها – كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ – تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى • واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسترضيها • ولعل الأله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هيوم) (١٢٤) • واذ تصور الانسان الآلهة الخيرة على شكل البشر – الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع • وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين لملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله •

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا • فالشرك سمح بألوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل • وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعنف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » • واكرهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبيا بين القدامى باعتبارها دين الصفوة . وفى هذه العقائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اختاروا الاستشهاد ، فان حياة البشر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضي عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . مثال ذلك أنه حين استشاره قسيس شاب فقد ايمانه أيبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبقد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة ... ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ ... والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل التظاهر - البرىء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

هـ - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررها العقل . ففى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترة أن تنسي نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطاياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، ٠٠ كذلك لا بد من الاعتراف باننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبان الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم » ٠

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بان هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لألحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى ٠ فلو انك سوبت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا ٠ أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل ٠٠٠ لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، واشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه ٠٠ ٠٠ فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » ٠

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف ٠ فالمبدأ فى رأيه « مبدأ ٠٠٠ نبيل فى ذاته ٠٠ ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » ٠ ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لانها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا اما على الاغتصاب ، او على الغزو ، أو علبهما جميعا ، دون أن تزعم بانها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب .. .. وكان من اثر استمرار تلك الحالة طويلا ... وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فاكثرها عملية على الارجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارستقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاضافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم ان مناخ البلد بقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « اما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن ان الناس يدينون باى شيء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والاقطار ، الافعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصداقة والكرم وروح الجماعة ـ هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوته ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر • أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وافعـــالهم ، فلن تخطىء كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الآخرين - فالبشر شديدو التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب • وأهم فائدة له انه يكشف عن المبادىء الثابتة والعامة للطبيعـة البشرية بعرضـــه البشر فى شـــتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظاتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنتظمة لأفعال البشر وسلوكهم • فهذه السـجلات للحـــروب والدسائس والأحزاب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجـــارب يستعين بها فيلسوف السياسـة أو الأخـــلاق على تحـــديد مبـــادىء علمه (١٣٢) » •

وقد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصـادى فى كتابيـــه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضـوعات مختلفـــة » (١٧٥٣) • ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع فى النهاية على الارض • وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شىء فى العالم يشترى بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مردد صدى لوك) • وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بان العمال « سيرفعون أجـورهم بالتكتـــل » ، وندد بتمـــويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعـــة والاصـــدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ســـتجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميـــع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) • والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجـــارة الخارجية • والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميـــع

الذهب ، ستحرم أوربا من المنافع الدولية الناشئة عن قـــدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصـــة بأدنى تكلفة وأعلى جودة • ثم جرؤ على أن يصلى :

«لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، •• لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وأسبانيا ، وأيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها• وانى على الاقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض ••• فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وانمـــا على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » •

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمدهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أثرت بدورها فى آدم سمث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوربا الغربية فى عصرنا هذا •

و ـ التـــاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السنى الذى اتهمـــه بانه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره • وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضـــع راتبـــه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله الســـيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد • وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ انجلترة » • وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صـــديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنى حياتى الاكثر نضجا (١٣٦) » • وكان يسمى التـــاريخ « الخليـــلة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكانه فى عرض امامنا ، باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت حكم المتفرجين على هؤلاء الناس اثناء حياتهم — فاى مشهد آخر يمكن أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وأى متعـــة للحـــواس أو الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة من أعظم مؤرخى العالم : فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ، وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء على هيوم والاقرار بفضل تاثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فــوق كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمـــال الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربمـا كان كتاب هيوم « تاريخ انجلترة » (١٧٥٤ — ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ، والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الأول الصادر فى (١٧٥٤) عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول — السنوات ١٦٠٣ — ٤٩ ، والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث والرابع (الصـــادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترة الى ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذى هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترة منذ استقدموا وليم الثالث فى ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستيوارت ، ثم زعم أنه برىء من النزعات المضادة . « رايتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد الحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة اخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، واغلب الظن أن هيوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترة قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر المانيا ، لحكم انجلترة واسكتلندة وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده يصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنبا بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى « لوثوا » لغتهم « برطانة » غامضة و « ووشوا اثامهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بانها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكرى ، وفوضي اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيوم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيوم ... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترة من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم ... ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظانه »

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث الطبيب عن الأوبئة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على هيوم انه قل أن رجع الى المصادر الأصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلهـا لوم واســتنكار ، بل بغض وكراهيــة . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية وأتباع المذاهب المنشقة ، واحـــرار الفكر والمتدينون ، والوطنيون والحاشية ـ كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشـــارلز الأول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان أشـد خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر انه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢)»

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حينا بان يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترة كادتا تقتتلان ، وقد أوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الأول أدخل « نيفـــا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجـــة الخبيثة التى يستشعرهـــا عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظـون الآن محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر اسلوبه البســيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحصيف . فوصفه للصراع المثير بين هنرى الثـانى وتوماس ابيكيت يضارع رواية جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تاثير المجـلدات الستة المتراكم صيت هيـوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » ـ ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد أزاحه جبون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسـجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئا بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة .

ز ـ الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجـال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف ـ المؤرخ ؛ ولكن الهجمـات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصـــل له على معاش قـدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تأثر بالرعيـل الأول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراســل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنســا بثناء يفـــوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترة . وعشقته الكونتيسة دبوفليه من قـراءة كتبـــه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فافلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صـــالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورفت من حوله عظيمات النســـاء ـ حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثـــق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثـة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « يا قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

احدى الحفلات بعد ان دخل هيوم عقب دالمبير باية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضـــور بديهة عجيب « والكلمـــة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب ان يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبرة ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضي الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكياء المهـذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى بوفمبر ١٩٦٥ اقبل سفير بريطانى جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة اتى بروسو الى انجلترة ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولابد من ارجاء هذه القصـــة الآن . وفى اغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره الف جنيه فى العام) صحيح البدن ، اتوقع — رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء — ان استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاســـكتلنديين كانه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا انه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخـلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو انه (كمونتينى وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحيـــاة الانســـانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمنته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقـل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعـــون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لانه آثر السمان من الرجال — قال آدم سمث : « كنت على الجملة اعده دائما .. اقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) ».

واذا لم يكن بد من البحث عن نقائص فى هذا الخلق الذى بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة فى هذا الذهن الألمعى ، فان أكبر الخطائه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشـــع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر »(١٥٢) ، وهى اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه .ولقد كانت سيكولوجية هيـــوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذا ، ولكنها لم تعلل تماما الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتى « أنا » ، واحلال « التتابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التتابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترة » لا يفتا يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) » . وان شكوكيه تخلى عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتهـــا ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع ردّه العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزنا يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيات الايمان ، والراحة التى كان يمسح بها على النفوس المقشعرة أمام سر الوجـــود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على اننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود الى الأقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحده «التنوير» للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساسا كان فى بريطانيا معـــادلا لأثر نيف وعشرة فلاسـفة فى فرنسا .. ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعورا عميقـــا ، فانه توصل الى افكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » ـ بل فولتير ـ مخالبهم على « العار » l'infâme ، لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب اليه ديدرو يقـــول : « انى أحييك ، انى أحبك ، انى أجلك (١٥٤) » وفى انجلترة أنهى مذهب الربوبية بتحديه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذه الذى بزه فى التاريخ . وفى المانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سباته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قـرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعداده النهائى لكتابه « نقد العقـل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هـذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى — لأجلى ولأجل أصدقائى جميعا — أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغـل فى ذلك الأقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن اعلق أملى على الانحلال السريع . لقد عانيت الما طفيفا جـدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببدنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى أوثر ان اعيشـها من جديد فربما اغريت بأن أسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى الفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر عـلى نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

وائتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الأثير لدى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو أسى . أحييك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنيـة فى باث ، فلم تجد فتيلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظـل هادئا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يتمناهما لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قاربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بانه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر اى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت بضع سنين أخر لطبت نفسا بان أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتلكىء ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أتتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق اذن من فورك » .

اما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة(١٦٠)؟ وأجاب هيوم « انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد ان فكرة الحياة المستقبلة تسر النفس ؟» وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كئيبة جدا » . واقلبت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير الم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ اغسطس ١٧٧٦ . ومشي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر «لا يهم، فلقد كان رجلا أمينا (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الادب والمسرح

١٧١٤ ــ ٥٦

١ ــ دولة القلم

كانت انجلترة تشغى بالطباعة على الاقل ان لم تشغ بالأدب . فضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان الالمام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا وترويحا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لرتشردسن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى انشىء أول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما اصبح عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للأدب ، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم فى كبار الأقلام بالمغريات السياسية ــ كما حدث من قبل مع أديسون وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للأخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترة المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، واصبحت الجريدة قوة يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . ففى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، واكثرها اسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه الأحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الأقليات الموسرة الجرائد لتملى أفكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات . وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التى أسست فى ١٧٣٠ أول الأمر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضــافت عنصرا مثيرا من الانباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة اجور اعلاناتها • وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثــل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسـوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ ـ ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « ادنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ • وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره •

هذه الدوريات كلها ـ اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية ـ أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها • ومع ان روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين ان يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث•وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داونتج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) • وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر او بلد • وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انهـا حكومة الصحافة • فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الاسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة(٢) » •

وراح الطباعون يعملون بحماسة جـديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترة كلها ثلاثمائة ، اثنان منهـم فى هذا العهد ـ وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل ـ خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية • وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة • ومن الشركات الباقية الى يومنـا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ • وكانت كلمة « publisher

الناشر » تدل عادة على المؤلف ، اما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . والف بعض باعة الكتب ، كأبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الأسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد اقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الأولى . على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ارلندة وهولندة أن ينشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترة منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفح البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترة » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للالياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك ان سيمون أوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تاليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ — ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح امير الأدب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون —

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين — ينامون ثلاثة فى فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة فى هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم اكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الادبية اتخاما لم يسبق له نظير بأصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا فى قبول الأجور المنحطة . وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح فى المال والأعمال ، مع انسلاخ الأدب عن الحماية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسا يستقبلون بالترحيب فى أروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترة — باستثنائين او ثلاثة — يقصون عن « المجتمع المهذب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجا فولتير الا يدرجه فى زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه انه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الأمر كان على النقيض ! .

٢ — الكسندر بوب : ١٦٨٨ — ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبدأ بنسب صاحبها وتنتهى بمأتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانبائنا ان « الكسندر بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لأبوين لم يتحقق أحد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكى الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السنة التى حطم فيها خلع جيمس الثانى آمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك . وخصت الأم الصبى الذى كان وحيدها بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى عموده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر اقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والايطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشيط ، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الثغ ببحور الشعر ، لأن بحوره وافتتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره اتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سنوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فانهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بألفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « افكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولع « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن، ونظريته عن بوالو . واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكاس اثمن من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الأدب ينبغى ان يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هـذبه وصفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنيى ، والذى يغزو الآن انجلترة ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحـدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بأرو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمـدة هادئة . وهـكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟ .
رجل لا يحرفه رضي ولا يميله حقد ، لا هـو منحيز فى غبـاوة ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سـمح ، ونفس تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينمي فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا ـ ارابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،
أم أن قاروره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
أتنسى أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالأقنعة ،
أتضيع قلبها ، أم قلادتها ، فى حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا فى ثرثرات جماعة الأشراف ، وقمارهم فى هامتن كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق من البحر العمبقى « الأيامبى iambic » يأخذ بالألباب) .
فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة من النشوق فى وجهه ؛

« وبغتة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الأثناء يغتصب الاقزام او السيلفات أو السمندلات الخصلة ويجرونها وفى اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنبا يفوق بريقه تلألؤ شعر بليندا .

وقد أبهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتها ، وانديتها ومقاهيها . ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر فى انجلترة ، وغدا كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يضف جديدا لشهرته بالأبيات المملة التى وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس له الأحرار بعد انتصارهم فى ١٧١٤ أنه فى تلك القصيدة كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التى سقطت (١٣) .
ولكنه عاد فأسر جمهوره فى ١٧١٧ بنظمه فى مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيل اليه انه المذموم فى أبيات بوب الطائشة :

« ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تاملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد انتقى عيوبا حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى اطار مقذع . فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوبيد أو ضفدع أحدب ، وهنأه على أنه لم يولد فى اليونان القديمة ، والا لألقت به عاريا بعد ولادته لقبحه (٩) . ولعق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢) وكانت تقليدا سافرا لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ، ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت اصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز أرابلا فيرمر بقصه خصلة من شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة . واقترح رجل يدعى كاريل على بوب أن ارابلا قد يهدأ سخطها اذا قص الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا انتهى الأمر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة اديسون ، وكدسها بعدة من الشعر الملحمى ـ الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات، والسمندلات ، والحوريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه « المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشاعر دنيس . وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة ربة شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتالق تالق الأحجار الكريمة التى رصعت بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات التجميل التى يسلح بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى مرادفات تهكمية ما سيحفل به يومها من جلائل الأمور :

مقفيين couplets رســـائل هلويز وأبيـــلار المختلقـــة . فنرى « الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبى ،
تعال ، وبنظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تأت ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ســـاعة احتضارها ، لا عاشـــقا بل كاهنا :

« ليتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت(١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدأ كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له أن يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت تكون منطقه الذى فطر عليه . واستشار أشدقاءه فأمنوا على الفكرة . وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويفت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر» الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذ كان سويفت فى موقـــع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « افضل شعراء انجلترة هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له الف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتتبيه . وبما أن المكتتبين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فان بوب كسب ٥٣٢٠ جنيها (١٤٨ر٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترة الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على أربعة اقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم أديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فاضاف أديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشراح المدرسيين ، وأنجز اكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبقى) الخماسي التفاعيل iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فأما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاخر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها ـ رغم اعتراضات بنتلى ـ الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كأحب

ترجمة للالياذة . قال فيها جونسن « انها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضارعها أية ترجمة اخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترة الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورث اللعنة على الاسلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترة الأوغسطى.

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ - ٢٠ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، اقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

واقنعه لنتوت أثناء ذلك بان يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلما محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الأوديسة (١٧٢٥ - ٢٦) - التى قصرت كثيرا عن الياذته - نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكتب الأربعة والعشرين ، فى حين انهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيها ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٫٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير مدين لانسان أميرا كان أو نبيلا (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة افدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، متحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شيء أنبل من الملك فى ثياب تتويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغـــارة » زينة حالمة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجـــان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجـو استضاف الكثير من الأصدقاء المشهورين ـ سويفت ، وجـــراى ، وكونجـريف ، وبولنبروك ، وآربثنوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيـــو ، والأميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارته فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من احد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقارب على التيمز ، واقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربثنوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجراى ، وبوب ، فى نادى سكربليروس الشـــهير (١٧١٣ ـ ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، واضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاظمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالادب وانتهت بعداوة مرة . وساكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٢٦) ، وتبادل الاثنـــــان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبـــؤة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تاثير فلسفى . وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغـــلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقـــة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطا من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسي بسبب حبى لهذا الرجل » ـ وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد انه كان هناك شيء يحب فى هذا الشـــاعر الذى صـــورته الرواية المتواترة ، بل صوره قلمه هو احيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان ممرورا ـ وله العذر ـ بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جـــذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصير ، كله حيوية ، طويل الساقين والذراعين ، لا تخطىء اذا رمزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدار من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهما ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدرة الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقية . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردسن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هذه الطلعة الحسنة (٢٦) - كلها تيقظ وحساسية ، ولكنا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . وندر أن تجاوز فى ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويفت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياما

بواجبهم نحو آبائهم(٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه أطهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كانفى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمرأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، احبت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علاقة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بانها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة(٣٠) » . وبات فى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه احيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، واطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب ستريت اقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجراى ، وعلى اقصاء سويفت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفأر مسموم فى جحر » يعنى كتدرائية دبلن . أما عن الباقين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكمور ، وأوزبورن ، وكرل ، وكيبر ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وآرنل — كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر — ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

لأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هذا جعل الجمهور أشد تهافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا الثأر من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينا يأخذ معه في جولاته مسدسين وكلبه الدنمركي الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفي ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد — هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اننا نتخذ في فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك في الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع .. ..
أو ، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للانسان ، والانسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل في أنفسنا ، واننا لم نولد الا لانفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك في شيء تشككنا في الروح والارادة (٣٢) » .

وواضح أن بوب كان ينقب في الفلسفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « في الطبيعة البشرية » في ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الادلة على أن الفيكونت كان قد نقل الى الشاعر ربوبية شافتسبري مشحوذة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقول جوزف وارتن « لقد أكد لي اللورد باثورست غير مرة انه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصلة في سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينهـا من وضـع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التى تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقـال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتبـاره من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يسـتهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيـات » ليبنتس ، « وفردوس ملتن المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شـاكرين لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضي استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا الا بالجهل :

« فارج فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله ٠
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بان يكون ذلك الرجاء بركتك الآن ٠
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » ٠

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحيـــاة من مظالم ؛ وعلينا ان ندرك ان الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لابد يرتب كل الأشياء لكل الأشياء ، لا للانسان وحده ٠ ويصف بوب « سلسلة الوجود الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ، ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقيقة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب (٤٠) »

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى ٠ ثم هذه الأبيات المذكـرة تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان ٠
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ٠٠٠
حكم أوحد فى أمر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، وأضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن.« محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ،
نكرهها حالما نراها ،
ولكنا لكثرة ما نراها نالف وجهها ،
ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وان كانت كلها ألوانا من محبة الذات الا انها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخبدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم
فاصلحها هو أفضلها ادارة وتصريفا
وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ،
فلن يخطىء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فاذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية
لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ! »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد ياسي البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصـــدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقية ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، واذا سلمنا بهذا
كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخـــر يمكن ان يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير • وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضـــن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم •

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هـــذا الأسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه • يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الافكار بالشعر باوجز مما بالنثر (٤٦) » • ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغـــه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها ــ وحشد المعنى الكبير على الأقل ــ فى حيز ضيق • فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد • وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد انكر صراحة اصالة افكاره ، واراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد • وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين • ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الاشرار • وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا •

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انســانية أو بشرية » منظومة • فالقول بان « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدا أنه يغرق اللاهوت كله • فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليـــه قسيس سويسرى يدعى جـــان كروزاز ، فزعم ان بوب قد ترك الله فى طـريق جانبى فى قصـــيدة مفروض فيها أنها تبرر طرق الله للانسان • ولم يخف للدفاع عن بوب امام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وربرتون الفحل ، فقـد شهد أسقف المستقبل ان القصيدة عمل من اعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها • ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة

حلوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السنيون تماما ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأيى أبدع وأنفع وأسمى قصيدة وعظية نظمت فى أى لغة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آربثنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتل خصوما جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لأديسون الذى سماه « اتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرفى المخنث الذى كان قد زل فوصف بوب بأنه « قاس كقلبك ، مجهول كأصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صوره وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقول ! أيستطيع سبوراس أن يحس ،
وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الأجنحة ،
ابن القذر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كأنه الضفدع الأليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حينا ، هابط حينا ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراعته فى هذه الهجمات القتالة —

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بان العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وأنه فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح لملحمة المغفلين رسم صورة قوية — هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته للدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتثاءب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضي القديمة !
امامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية . . .
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفىء الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسأل ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجأ الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! انها تحملق ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدرى ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضي ،
والنور ينطفىء أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضي الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس يلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب انحلاله هو انهيارا للكون كله . فقد كان وهو بعد فى الخامسة والخمسين يموت من الهرم . وأصبح المشي عسيرا عليه لاصابته بالاستسقاء ، والتنفس مؤلما لاصابته بالربو . وفى ٦ مايو ١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفيق منه فترات ، وأعرب فى احداها عن ايمانه بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكى أيستدعى له كاهنا فاجاب بوب « لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لانك ذكرتنى بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (اذا صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم يكن من حقه أن يدفن فى دير وستمنستر لأنه كاثوليكى ، فوورى التراب الى جوار أبيه وأمه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدح والذم شاركت فى تسميم هواء انجلترة الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العافية التى تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقريا ؟ بالطبع ، لا فى الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وايجاز التعبير ، وخصب العبارة ، كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما أخر نموذجا يحتذيه الشعراء الانجليز ، الى أن جاء وردزورث بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهرول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الآلى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد ان يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفد خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتطاول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقاده .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعرى الأكبر لعصر انجلترة الاوغسطى — الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ — ١٧٤٤ . فمعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتاثير الارستقراطية — تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة — فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهذبة ، ويسر السلوك واطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطط الاليزابيثى وعلى التدين البيورتانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترة مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة — كل أولئك تضافر لاخضاع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترة الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترة الأوغسطية يحط من قدر الشعر ويغير لونه . وكان اثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاها دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقوته ودفئه . وخضعت فورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، الزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سـلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صـوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والأمل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترة الكلاسيكى .

٣ ـ أصوات الوجـدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى هومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجـال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلقس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وانه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهـم الحريصـين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم بلمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واسـتجابتهم لها ، وبتغلغلهـم الى ما وراء الأفكار ليصلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالوا كثيرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائيـة وذوت الملحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الأيمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبيـة على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسـطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ والم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ والن يشتق المتشكك هيـوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الأساتذة لأسلوبه لأنه شـعرى

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ، وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى حذاء (٥٥) . على أن اهداءه اياها الى السر سبنسر كونتن أتاه بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزأر والسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؟ »

وكيف راقب من الشاطىء الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب « اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواه ، ما اقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة .. ..
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كاس
الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف » (١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحـرب على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة الألبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظــر الشمس منتصرة عقب المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته « الربيع » فى ١٧٢٨ ، وباضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلهـــا فى ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقـا لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهـد (أمير ويلز) الذى سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » . وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم قضي عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجـاوز الثامنــة والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترة الأقل شأنا ، ووجدت اتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان ـ لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القـــرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك أكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . اما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمـل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلية فى الحياة والموت والخـلود » (١٧٤٢ — ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج الليـــلى لأنه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعـــه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعبن قال فبهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلهـــا فى رجل واحد (٥٦) » .

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب أقل مما كتب ينج وأجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخـــر دراهمه فى صقل الأبيات الألف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجــن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . واجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وقد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى بلل الندى اصابعه الباردة
لبجمل ترابهم المقدس ،
هنالك يكسو بالعشب ثرى اعطر
مما وطئته أقدام الخيال .
اجراسهم تدقها أيدى الجان
ولحن الموت ترتله أفواه لا ترى ،
هنالك يحضر « الشرف » ، حاجا اشيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجـــدان هؤلاء ذلك الروح الغريب الذى اسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقـــة . ذلك هو توماس جراى ، الذى كان أحد اثنى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى لندنى ، مات منهم احد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رأته يتشنج . فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى ايتن ، حيث بدأ صداقاته المشئومة مع هوراس ولبول ورتشرد وست ثم مضي الى كمبردج ، التى وجدهـــا « مملوءة بالمخلوقات المكتئبة والمعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فيه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبـــال الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق للطرفين » لكل منهما برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادســـة والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ، وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ، فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئا ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكشرة عن نابها ،
التى تقرض القلب فى شغافه
والحسد الشاحب ، والهم الذابل ،
واليأس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النفس .

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطا رهيبا ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظرا من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخدل الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضي عليهم كلهم بالأنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واها لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطىء مجيئه أبدا ،
والسعادة سريعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فامسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيما
فمن الحماقة ان تكون حكيما » .

وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جراى الى كمبردج ليستانف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مرثية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها .. وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن ألبس جراى الاكتئاب الرومانسي لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مستبدلا بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر شموخا حتى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هاتان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نشرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيطة مبلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جدا ــ فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضي . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام .

واذ انكفأ مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل ــ ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترة تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيدة « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حينا . فانعقد الاجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » . اما آدم سمث فاضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء ليكون — ربما — أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية . « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف أصابعه ... وانى لأعترف أننى أتامل شعره برضي أقل مما أتامل حياته (٦٠) » .

ونستطيع أن نقلب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيالا كثيرة من ادمغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى الببون .

٤ — المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن بصدده ؟ كان أهمها مسرح دروری لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هييماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء . أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية ، فتحول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الأوبرا . وكان المتفرجون المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقرابة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثـــال كتى كلايف ، وبـــج ووفنجتن ـ التى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هى الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس. وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحى الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى انجلترة بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئا من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حتى لقد أدهش أوربا كلها أن يتقاضي السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئا فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسي فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قـانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثنـــاء على مسرحيـــة « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلنـــدن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوســطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى ذزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنـه يطبق بتساهل كبير .

الى المشاهد البورجوازية • وقام جورج ليللو بمغامرة مزدوجـــة ؛ أنزل المأساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا • فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويثق بانه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » • والفـــكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبى تاجر على يد غانية أغوته ، والموضـــوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق وملفوف فى العاطفة الرقيقة • وقـــد صفقت للمسرحية طبقة وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليـــا معروضة على مسرح بريطانى • ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملتـــه لادخال « المأساة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسي • ونقل لسنج نبرتها فى « الآنسة سارا سامبسن » (١٧٥٥) • وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكدها فى السياسة •

اما فى اسكتلنده ، فقد أجج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجه تمثيلية « دجلاس » (١٧٥٦) ، وهى أنجح مأساة فى زمانها • وقد حياه ابن عمه ديفـــد هيوم فى نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك ، فقال انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجيـــة (٦٤) » • فلمـــا رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون» من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيـــع التذاكر • وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلندة ، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنيـــة ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على ردائـــه ، وذكرته « بالرأى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيليات وممثلى المسرح لاضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » • ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارلبل لحضوره التمثيل • اما ديفد هيـــوم الذى اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمـــه ، وكتب اتهاما حارا للتعصب • واستقال جون من قسوسيته ، وذهب الى لندن ، وشهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتهـــا بج ووفنجتن (١٧٥٧) • هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشـــد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلى شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز سيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الايام التى لا تمثل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حققه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الشحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاى حياته صبيا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرتيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكربليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرح يخفف من غضبته للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاى بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع في شوارع لندن» . فقعقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخففون جيبك من أثقاله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بابك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاى بنظام الاكتتاب ، فوافته بألف من الجنيهات خسرها فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ باغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الأمر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل اصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه أمره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخيره مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنـــات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآحرين لها ، على عكس ما نلحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم(٦٩) ».
على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليـلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى ساقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب ».

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :
« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
ايطيع كيوبيد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيته أسلم وافضل
أن اتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشي أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشنقوه دون ريب . ويظهر ماكهيث على المسرح ، ويهدىء روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبى
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا « أفى استطاعة أى قوة ... أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ... لو ألقيت على شاطىء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى ... لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى .
هو ... ولأحببتك اليوم كله ،
هى ... ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ... لو سرحت معى فى هيام
هى ... فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بان أباها يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه تعليماته بشان احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الأغنية :

« وداعا اذن يا حبى ـ وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى أموت راضيا ـ وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لأننى بهذا أرضي زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بأن « الأوبرا يجب أن تنتهى نهاية سعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعن الشحاذ ، وينقذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاى أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترة ، واختار بوش موسيقى لأغانى جاى من الالحان الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما سبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضا طويلة فى كبرى المدن البريطانية ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاى لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاى أن يخرج تتمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الأمناء الترخيص

بها . فنشرها جاى ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ »
تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاى غنيا (rich)
وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من
انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ ـ الروايــة

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من اى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد . ومنـذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترة .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتـابة . فللهنـد حكاياتهـا وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث واسـتير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجـت رومانسـيات مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت الآف « النوفللى " movelle " (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديللو ، واسـبانية النهضة وانجلترة الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لأوغـاد رائعـين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطـول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن اكانت هذه الآثار روايات بمعنانا الحالى ؟ لقد أشـبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخوص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبـكة التى تربط بين الأحداث والشـخوص فى كل متطـور . لقـد كان فى قصـة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينهـا . فلمـا ملك رتشردسن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشـخصـية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ ـ صموئيل رتشردسن : ١٦٨٩ ـ ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجـديدة ابن نجـار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تاهيله التاهيـل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، واعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخـذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما افاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فانشا مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وانجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حداثتهم . كذلك ماتت امهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، واعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وانجب سـتة اطفـال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهـم على التحـرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشئون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردسن يعد هذا الكتاب ـ وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف ـ خطر له أن ينسـج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ - ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فان رتشردسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى باصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادىء الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأضاف اليه رتشردسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الأغواء - وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناى الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتززتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف - نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف - لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى ماساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدى على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . وإذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهرة رتشردسن كاتبا سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . وإذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرة اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الحلبقى اليها . ويختتم رتشردسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحت (فضيلة باملا) بالقدوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب الثواب والثناء والبركة » .

واضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلافا مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبهـــا فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفســه لرئيس الشـــياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشرون رتشردسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فتريث ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التاليـــة التى جاءته بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها ألفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجـــرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حـــاله تصـــويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلاصة القصة ان لفلبس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاربسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته • وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ؛ فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الاذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها • ويستأجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس • وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا • فيكتب لصديق له :

« ••• كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة • تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجانه) كل عيد من أعياد القديس فالنتين •• لما كان فى الأمر باس على الاطلاق ••• وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على •• أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) ••• ولن تكون هناك امرأة عاقر ••• فكلا الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر ••• وستزدحم الصحف بفقرات •• •• تعنى بتعارف المحبين • عندها الن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » •

ويحاول اغواء كلاربسا ، فتنذره بانها قاتلة نفسها ان لمسها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لآنا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها • أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا برء منه لانها قبلت نصف قبول أن تهرب معه • وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة اليه أن يغفر لهـــا بل أن يسحب اللعنة التى استمطرها عليها ، والتى تعتقد أنها ســتقفل فى وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يابى ، فتصيبها علة مدمـــرة لا يسندها فيها غير ايمانها • أما لفليس فيختفى فى فرنسا ويقتل فى مبارزة بيد عم كلاربسا ، وأخيرا ياتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة •

انها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت فى انجلترة القرن الثامن عشر مثار خلاف قومى • فكتب مئات من القــراء الى رتشردسن فى فترات النشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) • ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « فى هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كانها زهرة مخضلة فى الربيع (٧٧) » • أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التى بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنــه آذى ذوقها الارستقراطى • قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التى بكت على كلاريسا هارلو كمــا تبكى أى بائعة لبن فى السادسة عشرة لسماعها اغنية « سقوط السيدة » الشعبية • والحق أن المجلدات الأولى الاثنتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب فى جملته بضاعة غثة ••• ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل افكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنهـــا أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » •

والحت نساء انجلترة الآن على رتشردسن المنتصر فى أن يصـــور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية ـ فى ظنهن ـ فى باملا • فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التى رسمها فيلدنج لرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد اخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جراندیسن » .
ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشردسن أن يجمل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكنا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد افلت جراندیسن بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين .

والح رتشردسن على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبى . فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الأحاديث) ، ولكنها اتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، واضفت على الحكاية الفة لا تكاد تتيسر فى شكل اقل ذاتية . وكان مما يتمشي تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه افسحت المجال أمام موهبة رتشردسن الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشردسن نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا افضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية عصبية وأرقا . وفى ٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تاثيره الدولى أعظم من تاثير أى انجليزى اخر فى عصره باستثناء وسلى وبت الأب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج الخلقى لانجلترة جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كاتبا لا ضريب له فى القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقريظ لرتشردسن » (١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى المانيا ترجم جيلليرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تاثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشي كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛ والناموس الأخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكنا نعرف أن هذه الروايات مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، أكثر مما مثله شعر طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ونتبين فى رتشردسن الأب ـ كما تتبين فى روسو البطل ـ لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدنج العارمة .

٣ - هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيىء السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيليات الكاريكاتورية . واستعملت الليدى مارى مونتاجيو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح دروری لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عديدة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشهدها معلنة عن نفسها فى تفضل : وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح فى « مأساة المآسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٫٥٠٠ جنيه ، فاخلد فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع فى حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميليا بوث التى لا حد لصبرها وأناتها . وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » .

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيليات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردسن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالقها المتعددة كل ما فى فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) بدأها تقليدا ساخرا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عندى خبر ويا له من خبر افضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عقابا فى الآخرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنها طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسي مرة كل كلمة قالها لى القس آدمز .

« ولست أشك يا أختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاح أن تصلى لكى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثال يوسف الصديق سميى ، فاصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومها الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم . ولام رتشردسن فيلدنج لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيسه » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشردسن ، وراح يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والآداب ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات التى تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ، الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة حتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل فى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه ... مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذ لم يكن فى طبع فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية بأكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية لكتابه . وقد بدا هذا خيارا بعيد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متبنة ، ومعدة قوية ، وقبضتين صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فأنه مقاتل كفء يصرع سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهات غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم . والذين كانوا فى شبابهم يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج بينه وبين القس تراليبر الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جون فلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فاصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم » ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى تروى على الأصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان فى شكله الأول سخرية من المسر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرهـــا وتحقيقها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر ممـــا أحسنوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد ان « اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهـــائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عجـــوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) » واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضأل (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست ». وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفـــائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاســـبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايربلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتـــه من ذلك بامتثالهـــا فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلبة ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقـــه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمـــور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمته ـ التى قـــل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقهـــا ـ أن علق من عنقـــه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجنه ، وكدر موتها مزاجـه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعـد ، فى شخص صوفيا وأميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجنه التى بقيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) قاضى صلح لوستمنسنر ، ثم لمدلسكس بعد قليـل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المتقاضين الذين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهات النلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقـود على وجـه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ ـ ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من القضاء والكتابة المأجورة، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهة الكتاب القوية وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهاهنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظـم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هـذا الوصـف الكامل الصريح ، بدنا وعقلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منـا أن يرسم « رجلا » بأقصي ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر عـلى رفض « الطبيعى » فى فننا .. .. وأنت تأبى أن تسـمع .. .. ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام ـ تأبى أن تسمع واقع حيـاة أبنـائك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بانه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارىء سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الاحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخوص وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جراندیسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطا شديدا ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس ثواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيرا منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سکواير وسترن « الذى يعتز ببنادقه وكلابه وخيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تأتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جريا على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ اطلاقا على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بانه ربما كان أبا لطفلها ، ويروح عنه كثيرا أن يجد أنه لبس الا واحدا من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أبا للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباها ، سکواير وسترن ، كان قد هيأ جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن اخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أيكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هـذا أسـفاره الحـافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسـيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدها الى الأبد ينزلق الى فراش المسـز ووترز . وبعد شدائد كثيرة ، وتعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكواير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها .. هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أيكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد ... يمينا انها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوفى ؟ ... أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن خمسة جنيهات لكراون أن سيولد لنا صبى بعد تسعة أشـهر من غد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هـذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشـمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة - هذه التى توجد فى أى مجتمع . أما فيلدنج فآثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبى الكتب ومطهريها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنـوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفهـم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخـرى الى دنيـا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليـا » هو الدكتـور هاريسن ، وهـو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشـكلات التى

يكابدها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء . وبفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخـــر رواياته « أميليـــا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فأقام الآن لذكراها أثرا صورها فيه الزوجـة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الآنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجتـــه وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبـــل دعوة الآنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجـــال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين . ويجد القارىء هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخـــر لتثير ســـخط دكنز . ويستطيع القاضي ثراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوغاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزلدا ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كمـــا تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحـــة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجهـــا وتطيعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء ثيابها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الآنسة ماثيوز اللئيمة تشي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حليها الضئيلة الثمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تفت فى عضدها أخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك شأن روسو وهلفتيوس ، يرى ان أكثر الناس طيبون بفطرتهم ، وأن ما يفسدهم هو البيئات الشريرة والقوانين السيئة . وعند ثاكرى ان أمليا « أكثر الشخصيات فتنة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربما لم تكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارثة ، وتعتزل هى وبوث فى ضيعتها ، ويستقيم حال بوث .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد نبررها مقدماتها ؛ فبوث يبقى بوث على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فرغ من اميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلقه الى روايته « روديك راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة تموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ أقسى من أن يحتمله بدنه الذى هده العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . ففى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسي دعائم رواية السلوك الواقعيـــة ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هـــذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجســد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحـــه ، وغابت عنه مدومات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ ـ طوبياس سمولت : ١٧٢١ ـ ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلنديا وأفق هيوم على التحسر لأن انجلترة عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترة عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضوا فى البرلمـــان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمـــره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرســة دمبرتون الثانوية وفى جامعـــة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل ماساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا . وفى جميكا ترك الخدمة ، وهناك التــقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترة . وسكن بيتا فى داونبج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول احـــدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنــه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شده البشر وافعالهم أكثر ممـا شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نتـــانة الأقذار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفج . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صانعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن التـامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين يحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المباول بحثا عن الفراش الخطا ، والنساء يصرحن مستغيثات من مغتصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويشتم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سيدى ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقير ؟ تبا لك ! وويل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = سـمولت) مسـاعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضـور الذهـن ما جعلنى أنسحب فورا ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فاكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاويهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهـن ، ويلاحظ كيـف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعـاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ ألوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعقبـه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعى وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « تندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن الكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضي بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فيسبح الى بر جميكا ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا تجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهث ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة قوية بذيئة . وفى لندن يصادق رودريك مجموعة جديدة من الأصدقاء الغريبى الأطوار ، بما فيهم الآنسة ميلندا جوستراب والآنسة بدى جرايبويل . ثم يمضي الى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبتها له ، ثم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ... ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشترى » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جميكا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدير بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحقة فانى استمتع بها . لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا يجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء. وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فانكفأ الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارىء لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخوصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بانه « سيد من طراز غاية فى الغرابة» كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عينا وعقبا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصر على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير • ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة « قد » لاهثة ، وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق » فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هذا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) •

ويواصل سمولت مرحه خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، الا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » • ويطمئنه الكومدور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريحا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى - فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ••• وكأنه يخشي فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » • ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » • على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتنكفىء المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » •

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بأنه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » • وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه • قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن حدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيما ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجا محبا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله فى لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعـــامه وان لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم فى فرقة من المســـاعدين الأدبيين . وكان رائدا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟) فى الزامه تجـــار الكتب بتاييده فى شرط يليق بعبقريته . وكان أحيانا يكسب ســتمائة جنيه فى العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . واقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التى نجحت بفضل هجماتها على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة «البريطانى» لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب ـ أو أشرف على كتابة ـ تاريخ لانجلترة من تســـعة مجلدات (١٧٥٧ ـ ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبى » المؤلف من الكتاب المأجورين فى جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعـــالم » وكتابا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام. ونصحه طبيبه بأن يستشير اخصائيا فى مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضي اليه ، وأخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدى ، دليل على اصابته بالسل ، واذ كره العودة الى رطوبة انجلترة وخضرتها، فقد ظل عامين فى القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات فى فرنسا وايطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى فى رواياته ، تلك النظرة الحادة اللماحة التى ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيه فيهم دون مواربة ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والايطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحــكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغــلاف من الأدب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسيا ادخل الى أسرتك .. لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطارح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك ... او جدتك ... فاذا كشف أمره ... صرح فى صفاقة بان ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد فى فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى انجلترة وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن علته عاودته فى ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء فى باث . غير انه وجد مياههـا عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفى ١٧٦٩ عاد الى ايطاليا . وفى فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة همفرى كلنكر » وفى رأى ثاكرى أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع والطف كتب سمولت اذا استطعنا أن نطيق شيئا من القذر . وفى مطلع القصـة تقريبا نلتقى بالدكتور – الذى يتحـدث عن الروائح « الطيبـة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم انه يتقزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لذعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحة من الشخوص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتاع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه سـمولت بآرائه . وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعـا فى نفسه من قوتها الشافيه . وهو يكره زحام الجمـاهير ، ويغمى عليـه مرة من رائحتهم المتجمعه ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة . يقول :

« ان الخبز الذى آكله فى لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد العظام ؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا ... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم ... والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم ... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى يأكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز .. .. ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبىء بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضي اللياقة اخفاءه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربة ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيثا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بابداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر ــ الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماهاجو القصة فى درم ــ « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته ممتطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شووا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون »، ولأنهما زعما انهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال الفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ! وقد أنكر خلود نار الجحيم ، بل قذف ببعض مفرقعاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفرى كلنكر » مطبوعة . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات فى فيللته الايطالية غير متجاوز الخمسين ، بعد أن خلق من الاعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى، وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر دون أن يعوقها عائق من المواعظ .. ورسم الشخوص أقل لفتا للنظر فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب التى تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد ـ بالمبالغة فى خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص ـ انتقل الى دكنز ، الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التى بدأها ماثيو برامبل .

هؤلاء الكتاب ـ رتشردسن وفيلدنج وسمولت ـ اذا أخذناهم معا، وجدناهم يصفون انجلترة منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين ـ الذين يضلون طريقهم وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا التى أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم ليللو الى الدراما ، وجاى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ ـ الليدى مارى

بهذا اللقب الفت انجلترة أن تلقب ألمع الانجليزيات فى جيلها ، المرأة التى دخلت تاريخ الآداب والعادات بهجومها على التقاليد التى حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل مدم دسفينييه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهى حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييربونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الام وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المترف ، ثورزبى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وتبدى ذكاءها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيليات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد .. وكان أديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المامها بالآداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ أبوه سدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) ـ وهو فى الثلاثين ـ رجلا ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسي فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمة بأن قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هى اول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك الا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتأنية . فلما مرضت بالحصبة أرسل اليها رسالة قصيرة كانت آخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحنى كثيرا أن أسمع بأن حسنك قد أوذى جدا لو كنت أسر بأى شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أننى ـ لو تزوجتنى ـ ساهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . ففى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لانسان ، ولكننى لا أدرى أستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . ووداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وان كان معنى هذا ألا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلى انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقيا فى نزل ، وتزوجا فى اغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلى دون ألقاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصول وليدها . وفى ابريل لحقت بورتلى فى لندن ، وهناك ولد طفلها الأول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضو لجنة صغيرا . واستأجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى مارى غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف الاصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الاوبرا أيام الاربعاء ، والى المسرح أيام الخمس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الاول، ومع ذلك ظفرت برضي الاميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديهتها الحاضرة ، ونسي لحظة احتقاره للجنس الانعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ، وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء
لم يجرؤ بشر بعد
أن يشك فى علو كعبك ،
ولكن من الرجال ذوى الفطنة
من رأى ان التسليم لسيدة
فى أمور العلم أمر عسير .

ان المدارس الوقحة ،
بقواعدها الغبية البالية ،
انكرت التعليم على الاناث ،
وكذلك ينكر البابويون
على الناس قراءة الكتاب المقدس
مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول
من ذاق لذة المعرفة
(رغم انها لعنت)
ويجمع الحكماء
على أن القوانين يجب أن تقضي
بالحق لاول مالك .
اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسناء
فى جراة ذلك الحق القديم

الذى هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الأولى
قد عوقبت عقابا صارما
لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فأى عقاب جديد
يقضي به عليك ،
يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافة . وشاركت الليدى مارى فى هـذه اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما الزوجية البتارة أبيات الشاعرين رشـاقة ولذعـا . ولم تنشر هاتين القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسـخ مخطـوطة منهمـا بين الأصدقاء — واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امـرأة تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجعة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ، ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين اثرا من ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الامام . ومع ذلك ظفر ورتلى بالمكافأة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة » فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس فى الآستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى اول يوليو ، رسالة اشرفت على شفا الغرام باسلوب انيق :

« لو خطر لى اننى لن اراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لاقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الاستانة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية المنمقة المالوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول اغسطس ، عبر ورتلى وماري وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لانى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة اخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وافسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع احد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الاخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تاثيرها على ، وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا اقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو احكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه اضاف امله بان تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى اعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن احمل الاشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاح ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم أكن فى حياتى ميالة ولو نصف ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها اياه « صديقها فقط » . واحتفظت مارى بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشـعراء الأحياء .

وبلغت الجماعة الآستانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم فى تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدرى ، وطعم الدكتـــور ميتلاند الجراح الانجليزى فى الآستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب مدام دسفنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بأنها أديب ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها « أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسفنييه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلى لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك انصـحكم بالا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيداته مأخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاح والحب . وقد تصور تركيا فى خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعسات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام ـ حتى الخيـــار ـ مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصيا قادر على أن اتبع انسانا أحببته ، لا الى الآستانة فحســب ، بل الى أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضي الالهى » . ويقول انه سيعتنق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) » . واقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكانني ثمل ، فاللذة التى اجدها فى التفكير فى عودتك تطربنى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

واخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من اسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الآستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفـــا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نللر . وعقب ذلك دفع بوب لنللر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد اجـــاد نللر رسمها مع انه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممتلئتان امتـــلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب — وقد اشاد بهما جاى فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمّز ،
وسيماءالجلال والصدق السعيدة ،
ونظير هذا من تألق فى الذهن الرفيع
حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،
علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،
عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجـه ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها الفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشترت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الاسهم هبطت هبوطا مدمرا ، فاصبح الالفان خمسمائة ، فلما انهت الامر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فارسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الاستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسنرى فى مكان لاحق تاثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجاة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهـــام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العـــالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات بسهام يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن ســـويفت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شـــعبية ظـن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصـــائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الاعيبك يا ليدى مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بافراخك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « ســـافو الهائجة .. .. التى ابتلاها حبها بمرض ... » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهرى (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيـــار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى تويكنهام . وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتها التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة . ولابد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكها وغير مساره . ذلك هو فرانتشسكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد أثار بعض الضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وبالليدى مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين . وبدا أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (اغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى أقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلى يجب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسى . فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدوءها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا فى الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تذيع على لندن كلها غزوها الايطالى بهذه العبـارة المزهـوة Veni. Vidi; Vici « جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : أخشي أن أسيء اليك بارسـالى هذا الخطاب حتى ولو كان قد يدنى أن أسرك . والحق أننى مجنـونة فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست واثقة من خواطرى .. كل ماهو مؤكد هو أننى سأحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغـم تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقـول « فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بانها فى حاجة الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها راتبا ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها دخلها السنوى الذى أوصي به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها . وسـافرت باسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيـه صـالونا ، واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبـلاء البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآهـا هوراس ولبول هناك ، وأرسل الى هـ . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنبأتك بان الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضـحك من الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليـدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولابد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ، تدهش أى انسان لم يسمع باسمها . فهى ترتدى قبعة بشعة (تربط تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات - غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض .. وقد قامرت مرتين أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الأميرة كراءون حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبنى القليل من أعمالها (١٣٨) » .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملة توخيـــا للراحة ، وما من شك فى أن وجه مارى كان منقرا جـــدا ، ولكن ليس بالزهرى بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى مارى استياء ولبول الشاب بمصادقتها لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيـــه . ولعل الليدى مارى كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن ظنت أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليهـــا ، ولحقت به (مارس ١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ، وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضي هو الى برلين ، وهى الى جنوه . هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجـــه الى مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى مارى العفن ،
اذهبى بها الى أقصي ركن فى ايطاليا ،
وأنزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذى مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضوا فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركا معظم ثروته لابنته ، و ١٫٢٠٠ جنيه فى العام لأرملته . وعادت الليدى ماري الى انجلترة (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت أحدى وعشرين سنة ، اما لأن موت زوجها ازال عقبة خفية فى سبيل رجوعها ، واما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير ان الأجل لم يمهلها اكثر من سبعة اشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها لالجاروتى ، وانباء كتلك التى اشاعها عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوأت سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيو بدأت الليدى مارى تشكو ورما فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهور من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجا لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنع نشرها . على ان الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتها ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها اى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد

أحرقت الليدي بيوت قبل أن تموت فى ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ، ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر ٠ فسمح بنشر بعضها فى ١٨٠٣ ، أما الرسائل التى كتبتها لالجاروتى فظلت طي الخفاء الى أن اقنع بايرون جون مرى بأن يشتريها من صاحبها الايطالى (١٨١٧)٠ ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليـدى مارى تشارك بوب ، وجراي ، وجاى ، وريتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ، الفضل فى جعل أدب انجلترة أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعـــا وحيوية وتاثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ ــ ٥٦

١ ــ المصورون

لم تكن انجلترة التى سطع نورهـــا الأصـــيل فى عالم الأدب والسياسة سوى تابع متواضع فى دنيا الموسيقى والتصـــوير . وكان لتخلفها فى التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجواؤها المعتمـــة ، فالأجواء اعتمت فى الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حفلت هولندة بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحـــد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن انجلترة الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة فى التجارة وفى الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزى، لأن الفن ينمو ويترعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندة كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعتـــه الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزى ــ باستثناء ملتن ــ خلال فوضي الجمهورية (الكومنولث) . وقد طاطأ التأثير البيورتانى رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليم الثالث والهانوفريين ، ثم اتخذ فى المثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة فى الفنون الصـــغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع فى تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . واثرى خزافو برمنجهام من صنع الآنيـــة من اللك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، واسمه جون بسكرفيل ، مبلغـا أتاح له اشباع هوايته بطبع طبعات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الروكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقمـــاش والأثاث والأوانى

وفضة شفيلد وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات فى قصر تشسترفيلد وسترويرى هل .

أما المثالون فكان الناس قد بدأوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان أقطاب المثالين فى انجلترة أجانب المولد وان أصبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكرز من أنتوبرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق بكنجهام ونورماندية فى دير وستمنستر . وكان أعظم هؤلاء الأجانب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترة فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروض الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبته الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفته بأن ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من أفاضل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشسترفيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن باللاديو . ذلك أن الثروة المتصاعدة التى حققتها الطبقات العليا التى اثرت وهى منبرمة فى ظل السلام الولبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات بالاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترة بالأعمدة والأعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل كتابه « فتروفيوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيل البلاديويين ، ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جبز (١٧٢٨) الطراز دفعة أخرى بتاليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، ايرل برلنجتن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص باللاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات باللاديو للصروح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى تشزيك على نسخة من « فيللا روتندا » التى بناها باللاديو فى

فتشنتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجتن راعيا سخيا للأدب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى. وغدا كنت احب الفنانين وأحفلهم بالمواهب فى انجلترة ، بعد أن سكن قصر برلنجتن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم الأثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس لسيدات المجتمع ، ونحت تمثال شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير ببيكادللى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجتن الى مجلس مدينة لندن تصميم كنت البلاديوى لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو بأن بالاديو كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس الأب التكليف (وكان بروتستنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك العام بدأت الحفائر فى هركولانيوم ، وافضت الكشوف فيها الى الحفر عن بومبيى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود « أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت هذه الكشوف للحملة الكلاسيكية فى انجلترة دفعة لا تقاوم ، ووضعت حدا لوفرة التزويق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهيم » الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى آخر كان يرعاه برلنجتن ، قصر تشسترفيلد فى شارع كرزن .

وقد فات البلاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترة وغيومها . وأخطأ كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها لشتاء انجلترة ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بدخولها ، أما قاعة هوتن التى شادها لروبرت ولبول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التى تلقف التيارات الشديدة البرودة . واستخدم جيمس جبز ، أحد تلاميذ كرستوفر رن ، الطراز الكلاسيكى استخداما رائع التأثير فى كنيسة سانت مارى — لستراند بلندن (١٧١٤ — ١٧) ، وبرج هذه الكنيسة أشبه باغنية من الحجر . واضاف جبز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التى بناها رن برجا يطلو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوفا بالخطر . وتوج عمله فى ١٧٢١ برواق كلاسيكى واعمدة كورنثية فى سانت مارتنز — ان — ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق فى مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ — ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبة .

اما بهاء باث المعمارى فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هى ربط المبانى المفردة فى كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدأ — واكمل ابنه جون بكفاية — « الهلال الملكى » الضخم — وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا — دمرت تدميرا شديدا فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان بنى وود الأب والابن « السيركس » (الميدان) (١٧٥٤ — ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها افريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جيتزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود — دون أن يكمل — لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف الين الذى اتخذه فيلدنج نموذجا صاغ على غراره « سكواير أولورذى » . وبنى وود الأب لألن قصرا فاخرا بلاديوى الطراز فى برايور بارك (١٧٣٥ — ٤٣) ، خارج باث بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد ألن فى برايور بارك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه . واوحت نزوة المباراة للنبلاء والتجار باقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهى . ويقول

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عداء اللورد تاونشند الأبدى ببنائه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لتلتن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فأذعن لها تحت ضغط الالحاح والى حد أشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى اوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترة ، وحتى فى ارلندة الانجليزية ، أمثال هذه البيوت المظهرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الآفاق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجوود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريفه الانجليزية (٢) .

وأودعت معظم الصور فى انجلترة ، وأخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الأعيان الذين داعبهم الأمل فى أن يخلدوا على القماش بينما تبلى أجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترة فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى أن رتل العربات المقتربة من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنللر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) • وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بأنه « لن ينبغ أبدا (٦) » • ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا • فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وبنتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهيم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة •

٢ ـ وليم هوجارث : ١٦٩٧ ـ ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة • وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب • وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيهات) كبيرة لكتاب بطلر « هوديبراس » • ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة استاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعدا له •

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولمسرحيتى هنرى الرابع ، ولأوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة • فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلستاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى أغلاله وألحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء • ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الأطفال » فقد تلذذ باجمل جوانب الحياة الانجليزية • وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تأته بثناء وقتها •

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فاكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم • يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . ونندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرارا لمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمامل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صوره هوجارث باهانة مؤذية . ورفض اللورد أن ياخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فارسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد ـ واذ وجد أنه لا يريد أن ياخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى المال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لان المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » ..

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كاى فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) اخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من تقاليده . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولبة » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازىء لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى أسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتسم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة افلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الآنسة مارى ادوردز (١٢) » ميتة نوعا ما ، فان الكلب ـ وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث ـ يبعث فيها الحياة ، واروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صوره كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » ـ وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصبية التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتألقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . ففى ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أفطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا أمينا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكتته ، وأصحابه ، وكأسه، وروزبيفه ـ روزبيف انجلترة العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان. ووراء حبه للقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد ادخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى آثامهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكد المضنى . وكره الفرنسيين لانهم افسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا أجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضآلة ربحه من صوره الى الاتجاه الذى أكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن انحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد .. وبما أننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصناعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت أفكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق فى أى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ ستة صور سماها « رحلة بغى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبغاء بل للسرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفض القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الأراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبرأ من الاثم ، فقد أطاق فى غير اشمئزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صوره المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا ومائتى مكتتب، ونيف ربحها الصافى على ألف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . وأقبل الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السنوات القليلة التالية ، لا سيما « مهرجان سذيرك » ـ وهى لوحة « بروجلية » انجليزية ـ ولوحة جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة فاجر » ترى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجاة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد الى لندن ، ويستمتع بالحانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ، ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهله عوراء غنية ، ولكنه يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ، ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا . ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ أقر البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ، وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث » أعطاه حقا يعادل حق التاليف على صوره المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ، فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن انجح فيما يسميه المغالون فى اطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤)». وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صورا رائعة كان عليها أن تنتظر قرنا لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاح بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وينام قطه فى رضى خلى من الهم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن هوجارث تبله بحسناء نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوما من اغراء جسد الانثى ، ففى محفورته « الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلع على هذا الجسد مزيدا من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . والطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أغلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الاعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات اكد فيها المنقاش درسا اخلاقيا بقصة . ففى المشهد الأول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الايرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى أذنا مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكا من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتللا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فتتثاءب بعد أن قضت الليل ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا أيضا ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . اما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجرأ حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد ياتى بخليلته الى طبيب دجال ليجهضها . والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفها ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة • وفى المنظر الخامس امسكها زوجها متلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب • وفى المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها •

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسمه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه انذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد • فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيها ثمنا للوحات وأطرها • ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا • وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٫٣٨١ جنيه • وهى اليوم من أغلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن •

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوحته « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الاطاحة بالهانوفريين • وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحى لندن المسماة فنشلى • يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه • ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته • اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » •

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية • فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناع فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) • فأما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقرأ الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انها استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لأشد فخرا برسمى لهـــذه الصـــور مما لو كنت صـاحب رســوم رفائيـــل الهزليـــة (٢٩) » . وفى سلسلة « صـــور أربع لأحـــد الانتخابات » (١٧٥٥ ـ ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمنا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارث المطبوعة على انها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على انه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبه صديقه فيلدنج اكثر من الد خصومه وليم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجـــال والنساء هم ممثلى الذين يراد منهم ببعض الحركات والايماءات أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صوره المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى ـ الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايدويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهـــد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارث فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بانه لا يصور غير

حثالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لانه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لانه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بانهم يتامرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الاحياء يتضورون جوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لهـا من سلطتهم وتاييد من التقاليد ... لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثناؤهم عليها ، لا بد ان تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين أرقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض ان يخضع رأيه لامثال هؤلاء التجار أو الخبراء . ونددد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فانديك أو للى أو نللر ؛ لا بل انه أطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقبا هزليا هو « الأساتذة السود »، لانهم ألقوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باربعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، تشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجسموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيللا والملابس الزاهية والأيدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشترى المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهات الأربعمائة التى طلبها هوجارث ثمنا لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتاليفه كتابا . فعلى لوحة الألوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكلبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطا ملتفا لاح له أنه العنصر الأساسي فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى ان خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على انه أثرى برغم انوفهم ، فاقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتاخ له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصـــورين لكل أعمال جلالته » ، وهى وظيفة أتته بمائتى جنيه أخـرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . ففى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهمـا لانهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشـمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشـا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسـالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصـلت عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ اكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شراايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمـانه . وفى ١٧٣٤ افتتـح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعيته مؤثرين عليها المثاليـة الفاشـية يومها ، مثاليـة رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحاليـة مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسـه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير

القرن الثامن عشر (٣٥) » . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليـــوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمـــع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترة الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمـــه فيلدنج ففال فيه « أكاد أجرؤ على التاكيد بأن عمليـــه هـــذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضـــية الفضيلة .. أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التى كتبت اطلاقا فى الأخلاق (٣٦) » . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الأنجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ ـ الموســـيقون

من ألغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترة التى أسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية الاقتصاديين والســياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة ـ انجلترة هذه أقفزت نســـبيا فى اشكال التاليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الأولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهـــذه الظاهرة فى زوال الكثلكـــة من انجلترة ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشـــعائر اللوثرية فى المانيـــا والانجليكانية فى انجـــلترة تطلبت الموسيقى ، فان أشكال البروتستنتية الأكثـــر تزمتـــا فى انجلترة وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لأى موســيقى تزيد عـــلى الترنيمة الجماعية التى يرنمها المصلون . وحل محل أساطير كنيســـة روما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباهج الايمان ، عقائد جبرية قاتمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترة الاليزابيثية الغرامبـــة الشعرية فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنســـا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كثيف عـــلى الموسيقى الانجليزية من حديد .

هذا باستثناء الأغانى التى تفاوتت من الجهـــوريات الجماعيـــة المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميـــزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيليات شكسبير . وكلمة glee هى الكلمة الانجلو ـ سكسونية gleo ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرح ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسـيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت أندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير ـ « هبى ، هبى ، يا ريح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيـقى » ؛ وما زالت هذه نسـمع فى انجلترة . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا » ! » وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانيا القومى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثـانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صوره المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك
ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،
حفظ الله الملك .
ربنا انصره نصرا عزيزا
واجعله سعيدا عظيما ،
ليملك علينا طويلا ،
حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،
وشتت أعداءه ،
واجعلهم يسقطون ،
وأحبط سياساتهم
وافسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
احفظنا اللهم أجمعين (٣٧) » .

واقتبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحنت به أغانى وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة الامريكية — التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنيـــة شراب انجليزية عتيقة .

ويدل رواج الأغانى الرقيقة فى انجلترة على ذوق موسيقى واسع الانتشار . فكان فى كل بيت هاربسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموســيقية ، وتوفــر من العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيـــولا ، واحدى وعشرين فيولنتشللو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ، وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وســـت ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائيــــة من تســـعة وخمسين سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا — وهذا عدد كان خليقــــا لكبره بان يرتجف له هنـــدل فرقا فى مقبرته بالدير . ولم يدخل الكلارينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ، وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات شكره — مع تلك التى لحنها هندل وبويس — هى تقريبا موسيقى انجلترة الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية (أى الأوركسترا) وعازف الارغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأرغن أو الهاربسيكورد وما زالت بعض أناشيده — لا سيما « على أنهـار بابل » — تســمع فى الكنائس الأنجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقـل أغنيتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لأحدى تمثيليـــات

جاريك الايمائية ، و «رفقا فى هبوبك يا نسيم الجنوب » وهو لحن فى كنتاتا « سليمان » . أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لآذاننا التى عراها الذبول .

كان الشيء المثير الوحيد فى دنيا الموسيقى الانجليزية فى مطـــلع القرن الثامن عشر هو مجىء الأوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الأوبرا لم تستهو المزاج الانجليزى الا حين قـدم المغنون الايطاليون من رومــا فى ١٧٠٢ . وفى ١٧٠٨ صدمت لنـــدن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكولينى . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترة ، وكادت تجن بصـوت فارينللى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فى لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطاليـة دون غيرهـــا . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية .... ان حفدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيليات بأكملها تمثل أمامهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حبكات هذه التمثيليات انه ما من شيء فى الأوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التى يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية ـ وكان اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الأزمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة ـ على العصافير الحقيقية التى تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شـــفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزامووند » التى فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرهـــا العـــرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألمانى وفد مؤخرا على انجلترة ، هذا الى أن الكلام كان بالايطالية . ومما أفزع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما بروداه ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بألحانها الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هى بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ — هندل : ١٦٨٥ — ١٧٥٩ (٤٠)

أ — نشـــــأته

كان جيورج فريدرش هندل★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى ألمانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى انجلترة طوال النصف الأول من القـــرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كأنه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سبستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وأتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موســـيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكترثان للموسيقى ؛ فأبوه كان الجـــراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس — فايسنفيلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأرغـــن والهاربسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سـمعه يعـــزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بأن يدرس عـــلى فريدريش تساخاو ، عازف الأرغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى ألمانيا يوقع باســـمه Händel (هنـــدل) ، وفى ايطاليـــا وانجلترة Hendel (٤١) .

السوناتات (التى بقى منها ست) ، وحذق العزف على الأرغن الى حد حمل تساخاو والأبوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف أمام صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التى ستصبح عما قليل ملكة بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات . أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الأمر. وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف أرغنهم السكير . أما العبقرى الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضي عاما واحدا هناك اقتلع كل جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ، حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان فى هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما ، و « التينور » الأول فى الأوبرا ، الذى أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهودى يعزف ، ويتحسسا امكان خلافته فى العزف على الأرغن فى كنيسة مارينكرشي ، ووجدا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظرا الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سخف المبارزات فى أى مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه « كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى ٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق الصديقان الأوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الأوبرا

والمارة . وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر . وانقلبت المأساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطليها ، وراحـــا يجتران سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور التينور . وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل .

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالايطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع . ودب دبيب الغيرة فى قلب رايندهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها . وضعفت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف . وكان الأمير جوفان جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدح حتى خدم المطاعم بالأغانى الجميلة . واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته مائتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيـــه فرديـنـــاند راعى الأبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ . فلما وجـد جيـــوب فرديناند منيعة نزل الى روما . ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد . وعزف هندل على الأرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفـــا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحـدا لم يرد أن يخـــرج أوبراه الجديدة . هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها . ونفح فرديـنـــاند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخزف . ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست عشرة دارا . ومن ثم مضي هندل الى البندقية .

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، وملكة الأدرياتى مبهورة بســـحر اليسساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « متردانى أوباتورى » ، فلا مجال فيها لألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجـد له صــديقا وفيـــا فى ابن اليساندرو . وتقول الرواية انه حين عزف هنـــدل وهو مقنـــع على الهاربسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » • والصداقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاربسيكورد فى ذلك العهد أشـــبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشاز التاريخ • وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) •

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا افضل • فقد بلغ نبأ « رودريجو » العاصمة ، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أشد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى • وبنى المركيز دى روســـبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة »، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » • غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون • فلما أخرج الكردينـــال بييترو أوتوبونى أوراتوريو هنـــدل « سريناتا » أتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا • فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسي الذى لا أفهمه (٤٣) » • وأخذ هندل الكمان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة • وسامحه كوريللى •

بقى على هندل أن يغزو نابلى • وتقول رواية لا يعتمد عليها ان هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والابن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) • وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بان ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل ابان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمـــه وبموسيقاه • وقد يبدو امرا لا يصدق أن يخلو قلب رجـــل استطاع أن يكتب مثل هذه الالحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنهـــا بدد حرارته على أجنحة الغناء • أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى اقام فيها هندل فى نابلى فهو — على قدر علمنا — لقاؤه بالكردينـــــال فنتشنتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية • وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم • وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع • ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فاسرع اليها هندل حاملا موسيقاه •

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجريبينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التى عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصــنعة قل أن أدركهـا حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو ســكارلاتى ، فهتفــوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو الممتــاز جوزيبى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تســع وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فنصحه تشارلز مونتاجيــو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يســتطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هــؤلاء الايطاليين المتقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام المانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفــرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة كراون ، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين . وفى خريف ذلك العام ، طلب الأذن له بزيارة انجلترة ، فحصل عليــه ، ووعد بالرجوع سريعا .

ب ـ غــزو انجلترة

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيهــا الباصو بوسكى ، ومغنيتها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها الســوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقــا غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجــلالة) ، ومسرح

دروزى لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرءوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامـرة بباروكاته وأكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذا عن « تحرير أورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تحرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن اقبلت عليهـا ، وتغنت بألحانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هـذا ، لحنـان همـا اتركنى اننى أبكى Lascia ch'io pianga و Cara Sposa يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمائة جنيـه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هنـدل فى سـخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الاوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الأوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسدا فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير النـاخب ؛ وأغلقت دار الأوبرا فترة الموسم ، فألف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الأوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ اسـتأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترة . وأذن له الأمير الناخب ، ربما وهو شاعر أن انجلترة ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، التى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللفور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همتـه .

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيوس) • وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصالات شباك التذاكر • وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافأ المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لاعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد • ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الأدب والفن •

واقبلت عليه الدنيا أيما اقبال • ذلك أن الملكة آن تاقت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل آن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها • واثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل • وأثابته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه • اما وقد ظفر بالاطمئنان والرخاء ، فانه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب •

ولكن فى أول اغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، واصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترة باسم جورج الأول • وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الأحداث • فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء • وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، واحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض • وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، واخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، واحبها جورج • وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمنيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلترة الذى يصلح لمصاحبته • وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمائة جنيه فى السنة •

ووكلت اليه الأميرة كارولين تدريس بناتها ، وأضافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الآن صاحب أعلى أجـــر بين المؤلفين الموسـيقيين فى أوربا .

فلما غادر جورج الأول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفـر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى أمه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لأرملة معلمه القديم تساخاو التى أخنى عليها الدهـــر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطـــلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون ـ دوق تشاندوس فيما بعد ـ هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدلسكس ، ويحل محل قائد الموسـيقى فيـه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتاليفه موسـيقى « أوبرا الشحاذ » . هناك كتب هندل « متتابعات موسيقية للهاربسيكورد » وهى « فنتازيات » على الهاربسيكورد بأسلوب دومنيكو ســكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نشيدا تشاندوسيا » وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاى سمها « آسيس وغلاطيـــة » ، وأوبرا « راداميستو » .

ولكن من يخرج الأوبرا ؟ لقد هبط عـدد رواد مسرح صــاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقـــاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير ١٧١٩) الأكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الأول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى أوربا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى المانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هالة الى انجلترة ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشي اليهـا نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألمانى العظيم الذى غزا انجلترة ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخليلته ، وجمهور تالق بالألقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى الالقاب

ليدخلوا . يقول مينويرنج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « أجربيينا » قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم ايرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشينى . فاقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشينى « آستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا آستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . أما المعجبون ببونوننشينى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولا عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشينى ، واحتشد الظرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة .. وبدا أن بونونتشينى قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كريسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتسينى هى « جريزلدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشينى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشينى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمان لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجينى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهندام ، غبية ، شاطحة الاحلام (٤٩) » ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتهـا » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعـرفى أننى بعلزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بان يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الالفان من الجنيهات ستتبعانها ، فانها اذعنت لأمره . وفى حفـلة الافتتاح (١٢ ينـاير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هـذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : -

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهـيرة والاوبوات الواقعيـة ، لا القياثير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » الا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكمـا عظيمـا فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقـوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليـو (أريوستى) ... وفى لندن ووستمنستر ، فى كل حديث مهـذب ، يجمع الرأى على أن سنسيئو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونبش التاريخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافيـوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكبيو ، والاسـكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشينى باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحـن مؤلف آخـر هو أريوسـتى أوبرات عن كريولانوس ، وفسـبازيان ، وارتاجزرسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثـلاثى بوصـول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف ـ سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هنـــدل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع أمسيات ، ثم انقســـموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجـر أنصـــار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصـــيحات الاســـتنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشـد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين ـ وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الايطالية فى انجلترة . أما الضربة القاضية فقد كالها لها واحد من أرق الناس فى لندن . ففى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشـحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفتا أغانيها المرحة الذكية البذيئـــة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش ـ هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحـــول جمهور المسارح بجملته تقريبا عن هندل وبونونتشينى واريوســتى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجـلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوابر الايطالية وسخر من حبكاتها البلهاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومســـات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبلاء والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الايطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات ـ سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلتاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تاتيا بربح . وفى ٥ يونيو شهرت الاكاديمية الملكية للموسيقى افلاسها ولفظت أنفاسها الأخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الأكاديمية الجديدة للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه - وهى كل مدخراته تقريبا - وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بألف جنيه فى العام معونة له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ، لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم ديوكا وبلابل جددا . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنيبالى فابرى التينور ، وآنا ماريا ستررادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف ليزور أمه آخر مرة . وكانت يوموها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهلم فريدمان باخ ، الذى أتاه بدعوة لزيارة ليبزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان سباستيان باخ الا لماما ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب شهرته يوما ما . وهرول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو الهامبورجى يوهان ريمنشنيدر .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر ١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير باوبر « بارتنوبى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمننيدر الى القارة ، واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وستررادا ديل بو ، ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لندن (٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم الحانه تاثيرا . وامتلأ مسرح صاحب الجلالة برواده مرة أخرى . واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا طيبا .

ولكن الكفاح للابقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ

يصبح أشد عسرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهاك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترة ، ولكن انجلترة بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الألحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انسياب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعته انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيظل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

ج — هزيمتـــه

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرســـاة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغـــرى جيتس بتكرار عرضها مرتين — مرة لجماعة خاصة ، ومـــرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترة . واقترحت الأميرة أن عرض « اســتير » بمسرح جـــلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن احتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « اوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفــردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضا خمســة فى أول شهر لها .

واخفقت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلاطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشـــاهديها ، وارتد هنـــدل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هـــذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخـرج هنـــدل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هندل الوقح ... المستبد ، المسرف (٥٣) » على موســيقى لندن . ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد أوتوماتيا مودة فردريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثانى وعدوه . واخطأ هندل ـ الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه ـ بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثأر جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانهما متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فاضافت الى تعاسة هندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الأشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هندل ، وكوتزونى بالمجىء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز ان فيلدز ، أخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أمـا هندل فقد قابل هذا التحدى الجديد بأوبرا تناولت موضـوعا مشابها مشابهة تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقيت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الأشراف ، ونقل هندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، اشهر المغنين الخصيان ، المعروف لأوربا كلها باسم « فارينللى » . وقد نفصل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا ان نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « أرتازرسي » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترة الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعـين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى ـ وقابلها هنـدل بأوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنيـة غنى فريدا فى موسيقاها الآلية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين،

ووعدت بأن تغطى نفقات هندل • ولكن حين أخرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت في مرات عرضها « أرتازيرسي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشينا» (١٦ أبريل) أن اقفر مسرحها من رواده — ولو أن الحانا أوركسترالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم • واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطبب آلامه الروماتزمية بمياه ينابيع تنبردج •

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن باوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» • كتب معاصر أن جمهور الألف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سمع فى لندن (٥٤) » • وتعزى هندل بربح منها بلغ ٤٥٠ جنيها ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتمل اعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأرغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف — المخرج — القائد — العازف اليائس الى الأوبرا من جديد • وفى ١٢ مايو قدم « أطالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز • وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبللو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى » وهو من اجمل وأخلد أغانيه • وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بألف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه •

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ • وملأ هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقة « جوستينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببه ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » • ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنوعة حطمه • وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة • وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقته • ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مثقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل • وبعد عشرة أيام حلت « أوبرا الأشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الاوبرا العظيم فى انجلترة .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه ـ هذه كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر انجلترة ليستشفى بمياه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول انه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات .. .. ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الأرغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف. وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل الف جنيه لقاء اوبراتين ، واحتوت احداهما وهى « سرسي » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهيرين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستأجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثارة ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أتته بأكثر من الف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائنيه ، وكان أحدهم يهدد بايداعه سجن المدينين . ولكنه كان مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يتلق من الاكتتابات ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ ـ ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب والاوجاع تهز بدنه .

د ـ الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اســمه بتفضيله أياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الأوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسمى وتلميذه اليساندرو سكارلاتى الأوراتوريو فى ايطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من ايطاليا الى المانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهـذا هو التراث
كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهـذا هو التراث
الذى بلغ غايته فى « مسيا » " Messiah " هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى «شاول» و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نصا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس. لقد كانت فيجزء كبير منها موسيقى دينية، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس. وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترة ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته ســـوى الأمة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الآب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترة ، فاستجابت فى فخر لأوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » بأوراتوريو « شـــاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « ان مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العمل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هى « اسرائيل فى مصر » . هنا جعـــل الكورس هــو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعــدها الكثيرون أســـمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترة الى الحرب مع أســبانيا بسبب أذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حتى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناى الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حين اتفق « دق الطبل الراعد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحــرب المدمدمة فى الشوارع . وعاود الأمل هندل ، وجرب أوبرا ســـماها « أمينيـــو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللنــــدنى قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . ففى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشـــارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعياء ومراثى أرميا وحجى وزكــريا وملاخى — وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا — وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هى « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معرف خـــلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعمـاله فى دبلن . ويبدأ له الن الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة أنه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أرلندة .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحـا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلتان فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغاثة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر .. .. سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسـيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المســماه « المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتـا الكتدرائيتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأرغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا ... اعترف معه أعظم الحكام بأنها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . واضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لأثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخــرى الى الرجـــال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسـبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموســيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضي قدمت أوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » .. .. وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للاعراب عن المتعة الفائقة التى أتاحتها للجمهور المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر الســمو والفخــامة

والرقة ، التى واءم بينها وبين أنبل الألفاظ وأجلها وأشـدها تأثيرا ، لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين . ومن الانصاف لمستر هندل أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع بالتساوى بين جمعية اغاثة المسجونين ، ومبرة العجـزة ، ومستشفى ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) ».

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف مرة منذ ذاك التاريخ ، ومع هذا فمنذا الذى مل تلك الألحان ـ سواء الهادئة منها أو الفخمة ـ ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن فادى حى » ، و « ليتمجـد اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين الحاضرين قائلا « لتغفرلك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة ـ كل هذا اجتمع لبجعل من هذه الالحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممتلىء الجيب وقد عقد النية على أن يغزو انجلترة من جديد . ولابد أن قد سرى عنه غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبيـــاء » (١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن، قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على ألا يعجب بشىء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلعه « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة الحان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تاثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك - الذى أرسي يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هللويا » - أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . ففى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاساته ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لاعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقرية والمقص ، لانها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من متجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص آذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها انجلترة وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة. وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على اقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ الغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب ايرل شافتسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . واتخذ هندل انتصار يهوذا المكابى (١٦٦ - ١٦١ ق .م) على خطط أنطيوخس الرابع لفرض الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت اعادة عرضها خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة، فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ، وسليمان ، ويفتاح . وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانوريو « تيودورا » - وهو اسم مسيحى - من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشسترفيلد المسرح قبل نهاية العرض معتذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى هندل . ذلك أن روحه المتعددة الأشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لأى شكل من الأشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغانى التى مازالت تمس أوتار العاطفة ، وقطع الأرغن أو البيان المتناهية الرقة ، والسوناتات ، والمتتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ، وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ، والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسبيحات الشكر ، وترانيم أسبوع الآلام - كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ، منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات الهاربسيكورد » تبدو اليوم على الهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجمووعة ثانية من المتتابعات

بدأت بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرحـــا فى « تنويعات وفوجه على موضوع لهندل » ٠

وكما أخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسيمى وكايزر وارتفع بها الى أوجها ، كذلك أخـــذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » — لآلتين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركســترا الحجرة) ٠ وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه الكونشرتوات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيولنتشيللو بمجموعة وترية ، وبعضها يبدو لنا اليوم رتيبا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج لباخ ٠ كذلك نجد فى هندل كونشرتوات ممتعة لآلة منفردة — الهاربسيكورد أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب ٠ أما تلك المخصصـــة للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل ٠ وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نســـميه اليوم « ارتجالا » cadenza ، حيث يستطيع العازف أن يطـــلق العنان لخياله ويظهر براعته ٠ وكانت ارتجالات هندل فى مثل هـــذه الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا ٠

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الأول « رحلة » ملكية فى ذهبيات حفلت بالزينات على نهر التيمز ٠ وتكشف صحيفة « الديلى كورنت » عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنـــة نزل الملك الى النهر عنـــد هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقة نيوكاسل ، وكونتيسة جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر جنوب تشلسي ٠ ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليـــة القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا ٠ وخصص زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموســيقى ، زود بخمسين آلة من جميع الأنواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث ٠٠ ٠٠ أبدع السمفونيات ، التى لحنها المستر هنـــدل خصيصا لهـــذه المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى الذهاب والاياب (٦٦) » ٠

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التى هى اليوم أبقى وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية . ويبدو أنه كان هناك فى الاصل احدى وعشرون حركة — وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء فى تطوافها المشجى ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحة متألقة ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدهد خليلات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية فى الذخيرة الاوركسترالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للألعاب النارية فى جرين بارك احتفلا بصلح اكس — لا — شابل ، ووكلت هندل بتأليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى فى حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين — الكبير فى ذلك الوقت — للاستماع اليها ؛ وبلغ التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذى يعبر كوبرى لندن ثلاث ساعات — « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفى ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضي الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول فى الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتألقت الألعاب النارية فى السماء ، وشبت النار فى مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذ كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التى ألفت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترة آخر الأمر الى محبة الألمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل فى نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغتفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعاليه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الاقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى سلوكه جلافة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحمت كوتزونى وبوردونى بالأيدى على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنهيا المعركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحا على النقاريات ليرافق سورة غضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالوثب على الهاربسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سيأتون ليروك تقفز أكثر من الذين سيأتون ليسمعوك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل فى براعتها تعليقات جوناثان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضي الالمام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة — « سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التى تنتمى اليها ، ونوتات واضح أنها ضلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عينى اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . استأنفت العمل » . ثم الف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن ... كما يضيع النهار فى الليل(٧١)» . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز ». وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى انه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التاليف والقيادة سبع سنين اخر . فقدم فى ستة أسابيع (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيهـــا « شمشون » واثنتين « يهـــوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغشيا عليه ، واقتضي الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن ألحق بالالة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصينه ملحقا أوصي فيــه بالف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لثلاثة عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (عشية القيامة) ، ١٤ أبريــل ١٧٥٩ ، ودفـــن فى دير وسنمنستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روىء فى مثل هذه المناسبة بل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) ».

ولقد ترك ثروة موسيقية لا تصارع ، ستا وأربعين أوبرا ، واثنين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقـدمة ، واحــــدى وســـبعين كنتاتا ، وستة وعشرين كونسرتا كبيرا ، وثمانية عشر كونشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخم ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكـــررا ، وبعضـــه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينيوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلوديوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت وفق نماذج ايطالية ذهبت ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موســيقاها الموجـــودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واختصارات أكثرها غير مفهــوم الآن ، وقد كتبت لأوركيسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوســـط من

اجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والاوراتوريوات — ولكن حتى هذه الاوراتوريوات « عتيقة » ، لانها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتهضمها — وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهملة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدراما ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التاليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لانها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تاليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترة عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى احيائها بثلاثة ايام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقيمت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحيت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٫٥٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لاحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فورتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترة ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترة عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيتبوأ فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هندل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينتش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطيها الزوارق والأشرعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطىء رجال ونساء يختالون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأثارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل اليه خطاب تحويل على رصيده بعشرين الف فرنك قد أسهر افلاسه . وانقذه افرارد فوكنر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فاقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحى لندن . وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الأدب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوقة ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى نتحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهما لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلهفه لقتال روهان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن تنظيم شئونه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويفت - ضيفا على الايرل الثالث لبتربورو . واستمتع

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجتن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنج ، وطومسون ، وينج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الأولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الأدب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالأدب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصلاح الاجتماعى يجىء على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويفت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى لملحمة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير - الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمباذل (٨١). وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترة بزيارة بوب . وصدمه منه تشوهه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بوب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجريف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان يوما ما مسرحيا عظيما أراد أن يعتبر « جنتلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتها الوزارة الانجليزية قبل ولبول

للمؤلفين ، وقارن ببن هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ، الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ، وبدأ يدرس نبوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن محل ديكارت فى فرنسا . وتاثر تاثرا عميقا بالجنازة الرسـمية التى شيعت بها صفوة الانجليز نيـوتن ، ولاحظ كيــف رحبت الكنيســة الأنجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصــبح ربوبيا قبل زيارته لانجلترة - اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتينى وجاسندى وفونتنبل وبيل - فانه الآن اتخــذ دعمــا له من ربوبيى انجلترة - من تولاند وولسنن وتندال ونسب وكولنز ومدلنن وبولنبروك؛ وسيسلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء تاثير لوك الذى امتدحه فولتير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية. ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهرطقين المصرين على هرطقتهــم سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منــذ ١٦٨٩ ، وذهب الى أنه لا يوجد فى انجــلترة تعصــب دينى أعمى ، وحتى الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحــدهم ، وسره أن ينبأ بأن بنسلفاديا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحــروب والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ، ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعــاد يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريبا . وهذه الحقــوق هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛ وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا أتهم بجريمة ؛ وألا يحاكم فى أى أمر الا طبقا لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى يفضله أيا كان ، مع البعــد عن تلك المناصــب التى لا يختار لهــا الا أعضاء الكنيسة الأنجليكانية (٨٦) » .

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حــدود الحــرية الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيليات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشرة حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بأن حكومة انجلترة رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفزه حفزا خلاقا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترة فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغوة على السطح ، وحثالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لآثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر» ، وفى دفقة من حماسته دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحتقر الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترة ما حام حوله حينا من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللندنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترة ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتتاباتها ، بما فيها جورج الأول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويفت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب. فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفدت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت بثمن باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠٫٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترة (٩١) ، أما الباقى فقد استثمره بغاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بانه الأصل فى ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترة .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائبه . وأنفق جزءا من سنيه العشرين التالية فى تعريب فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » . وكما أن انجلترة على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسة لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسة لويس الخامس عشر من انجلترة الاعوام ١٦٨٠ ـ ١٧٦١ . ولم يكن فولتير وسيط التبادل الأوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو ـ هؤلاء أيضا أتوا الى انجلترة ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعرنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ... والألوان الأساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطيها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترة الجعة ، اما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فمه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة . ويبدو انه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترة ، وأغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ . وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان ـ جرمان ـ أن ـ ليه ؛ وفى ٩ أبريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصته دون أن تقضي عليه ، جياشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 30
2. *Ibid.*, 31, Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26, Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22, Desnoiresterres, I, 164.
20. Stryienski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 133.
42. Michelet, V, 197, Martin, H., XV, 110
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Ducros, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Camb. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 30.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

75. Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103
76. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
79. Aldington, 131.
80. Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
81. *Gil Blas*, last line.
82. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, *cf.* 91–94
84. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoiresterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
99. *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100
103. Créqui, 149.
104. Desnoiresterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoiresterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "*Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son addresse.*"
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoiresterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3. Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12
6. Trevelyan, G. M., *English Social History*, 379
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
8. Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Regime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B B., *Women of England*, 135
49. Besant, 138.
50 Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Faÿ, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du xviii^e siècle*, 78 79
52 Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm, *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62 Berkeley, George, *Siris*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90 Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92 Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93 Weinstock, H., *Handel*, 228
94 Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100 Chesterfield, letter of July 8, 1739
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103 Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129 Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIb, 70-72; *cf.* Laski, H., *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., *cxxx*.
18. Walpole, H., *Memoires of . . . the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 254.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 28.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 101.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. 241.
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 199.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 134.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV., 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, *xxi*.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, *x*.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 262; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 283.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mossner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mossner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, I, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, I, Secs. 174-75, Appendix II; *cf.* essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, I, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116 *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., *xv*.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273
130. *Ibid.*, 161.
131 Essay "Of National Character."
132 *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133 Essay "Of Commerce."
134 Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136 In Black, *Art of History*, p 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History
139. "My Own Life," *loc. cit*, 236
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236
143 *Ibid.*, 237
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154 Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., *xxx*.
156. Mossner, 588.
157 "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159 "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162 *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5 *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9 Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10 *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9
11 *Ibid.*, III, 16.
12. V, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20 *Ibid.*, 78.
21 Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68 69, in *Collected Poems*, p. 305.
22 Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112
23 E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts
27. London, National Portrait Gallery
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, 1, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 126.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65 *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid* , introd., *viii.*
77. *Ibid.*, *ix.*
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, *xxiii;* Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela.*
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263
102. Smollett, T , *Roderick Random*, Ch. xi. pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710)
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilensky, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84, Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoiresterres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 201, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 209.
85. In Buckle, I, 528.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.